الدفاع عن الماركسية

العدد 51

يحتوي العدد:

كيف أثرت ثورة 1905 في الماركسيين

التاريخ المجهول للتروتسكية الصينية

الرجل الذي أحب الكلاب ـ مراجعة لرواية كلاسيكية عصرية ـ

والمزيد..

الثورة الدائمـــة

In defence of
MARXISM

Theoretical quarterly of the
Revolutionary Communist International

Issue 51 October 2025 © In Defence of Marxism marxist.com

الدفـــاع عـن الماركسيـــة

المجلة النظرية الفصلية لـ
الأممية الشيوعية الثورية

العدد 51 اكتوبر 2025

الصفحة 3
ماهي التروتسكية
الافتتاحية

الصفحة 7
تروتسكي، 1905 والثورة الدائمة
جو آتارد

الصفحة 18
ماهي الثورة الدائمة - المسلمات الأساسية
ليون تروتسكي

الصفحة 21
تاريخ التروتسكية الصينية
كيني والاس

الصفحة 34
الصين 1949 : البرنامج الزراعي الستاليني يكسب الفلاحين
تيد غرانت

الصفحة 37
مراجعة كتاب : الرجل الذي يحب الكلاب
آلان وودز

Subscribe at marxist.com/magazine

Editorial Board: Alan Woods (editor-in-chief), Rob Sewell, Hamid Alizadeh, Francesco Merli, Daniel Morley, Ben Curry, Josh Holroyd, James Kilby

Layout: Jesse Murray-Dean

Contact: In Defence of Marxism Ltd, 49 Station Road, Polegate, East Sussex, UK, BN26 6EA | editor@marxist.com

All uncredited images are in the public domain

David King Collection, purchased from David King by Tate Archive 2016

Cover image: From the poster for Eisenstein's *Battleship Potemkin* (1925)

Inside image: Artwork of Trotsky from 1922, possibly by Yuri Annenkov

ماهي التروتسكية ؟

الإفتتاحية

تُعدّ نظرية الثورة الدائمة، إلى جانب نظرية الإمبريالية عند لينين، من أهم الإسهامات في الماركسية منذ وفاة ماركس وإنجلز. ولذلك فإننا نفخر في هذا العدد من مجلة «الدفاع عن الماركسية» بنشر مجموعة من المقالات التي تتناول هذا المفهوم بتعمق.

مصطلح «الثورة الدائمة» الذي استخدمه ماركس لأول مرة عام 1850، أصبح مرادفا لاسم ليون تروتسكي، الذي طور أفكاره في أعقاب ثورة 1905 في روسيا.

لذا فإن أي نقاش حول الثورة الدائمة يثير بالضرورة مسألة ما يسمى «التروتسكية». لكن ما معنى التروتسكية، إن كان لها معنى أصلا؟ وما أهميتها اليوم، بعد 85 سنة على اغتيال تروتسكي؟

الحقيقة ملموسة

غالبا ما يتم تقديم التروتسكية ببساطة على أنها مناهضة الستالينية. لكن هذا الوصف قد يشمل مجموعة متنوعة من التوجهات، التي ليست لمعظمها أية صلة بأفكار تروتسكي.

لا يكمن جوهر التروتسكية فيما تعارضه، بل فيما تطرحه. لذا فإن أي دراسة للتروتسكية ينبغي أن تنطلق من المبادئ الأساسية التي شكلت حياة تروتسكي باعتباره مناضلا ثوريا.

أول هذه المبادئ وأكثرها جوهرية هو مقاربة تروتسكي للمنهج الفلسفي للماركسية: الديالكتيك. وكما كتب عام 1939:

«إن تدريب العقل على الديالكتيك، ضروري للمناضل الثوري كما هي ضرورية تمارين الأصابع لعازف البيانو، ويتطلب النظر إلى جميع المشكلات بوصفها سيرورات لا كتصنيفات (Categories) جامدة»[1].

لقد اعتدنا في السياسة، كما في الحياة، على سماع واستخدام أفكار معينة مثل «الديمقراطية» و«الديكتاتورية» و«الرأسمالية» و«الاشتراكية»، وما إلى ذلك. وإضافة إلى ذلك فقد طورت الماركسية مصطلحاتها العلمية الخاصة للتعبير عن مفاهيم أكثر تحديدا، مثل «الثورة البرجوازية»، و«الدولة العمالية»، و«البونابرتية»، وغيرها.

جميع هذه التصنيفات مستمدة من الواقع، وتوفر أدوات قيّمة لفهم المجتمع في سياق تطوره. ومع ذلك فنظرا لكونها تركز على جانب محدد من الظواهر، فإن لكل منها طابعا تجريديا، لا سيما عند مقارنتها بالواقع المعاش، الذي يتسم بتنوعه وتعقيده.

فعلى سبيل المثال يُدرك معظم الناس مفهوم «الرأسمالية»، وأن معظم اقتصادات العالم اليوم تُصنف بكونها رأسمالية. كما يتفق معظم الناس على أن تلك الدول، بحكم كونها رأسمالية، تشترك في خصائص محددة، وتخضع لقوانين أو اتجاهات مشتركة.

لكن هل يمكننا أن نستخلص من ذلك أن جميع الاقتصادات الرأسمالية متماثلة، وأنها تتطور بنفس الطريقة والوتيرة؟ وإذا لم يتوافق مجتمع ما مع الصورة العامة التي يرسمها مفهومنا النظري للرأسمالية، فهل يعني ذلك أنه لا يمكن أن يكون رأسماليا على الإطلاق؟

إن التفكير بهذه الطريقة سيؤدي إلى الوقوع في فخ الصورية، أي الانطلاق من تصنيفات وتعريفات عامة، واستخلاص استنتاجات محددة منها، ثم محاولة فرضها على الحقائق المرصودة. هذا النهج شائع جدا في السياسة، وغالبا ما يؤدي إلى أخطاء جسيمة.

في الواقع، وعلى عكس أفكارنا وتصنيفاتنا، لا شيء على الإطلاق ساكن أو معزول. كل الأشياء مترابطة، وفي سيرورة مستمرة من الوجود والفناء، والتحول إلى نقيضها: من المادة الميتة إلى الحية؛ من الاستقرار والتقدم إلى الأزمة والانحدار... والعكس صحيح.

المنطق الديالكتيكي هو أقوى أداة طورها الإنسان لفهم هذا الواقع فكريا، حيث أثرى مفاهيمنا وتصنيفاتنا بالمرونة والوضوح اللازمين ليكون دليلا للعمل.

قال تروتسكي: «علاقة التفكير الديالكتيكي بالتفكير المبتذل تشبه علاقة الفيلم بالصورة الثابتة. فالفيلم لا يقصي الصورة الثابتة، بل يجمع سلسلة

منهـا وفقـا لقـوانين الحركـة»[2].

جميـع كتابـات تروتـسكي وخطاباتـه تتضمـن جـدالا دائما ضـد كل أنـواع الصوريـة والمخططـات الجامـدة والتكـرار الأعمـى للعبـارات.

التحليل الديالكتيكي

في عـام 1906، أي قبـل نحـو عشريـن عامـا على المناظـرات مـع سـتالين، خـاض تروتـسكي صراعـا نظريـا ضـد الجنـاح المنشـفي للحـزب الاشتراكي الديمقراطـي الـروسي، الـذي حـول المفاهيـم الماركسـية إلى صيغـة باليـة مـن «المراحـل».

انطلـق المناشـفة مـن مبـدأ كان مقبـولا لـدى جميـع الماركسـيين آنـذاك، وهـو أن الثـورة في روسـيا «ثـورة برجوازيـة». لكنهـم، انطلاقـا مـن هـذه الفكـرة المجـردة، جادلـوا بأنـه على البرجوازيـة أولا إقامـة ديمقراطيـة رأسـمالية، على غـرار البلـدان الغربيـة. وأن روسـيا لـن تصبـح مهيـأة للثـورة الاشتراكيـة إلا بعـد فترة غير محـددة مـن التطـور الرأسـمالي.

إلا أنـه، وكمـا جـادل تروتـسكي فـإن هـذا غريـب تمامـا عـن المنهـج الحقيقـي لماركـس وإنجلـز. وأن مـا كان المطلـوب بـدلا مـن ذلـك هـو القيـام بتحليـل دقيـق لنقـاط قـوة مختلـف الطبقـات، التي كانـت موجـودة فعليـا داخـل روسـيا آنـذاك، ومصالحهـا الحقيقيـة. وكانـت ثمـرة تحليلـه الديالكتيـكي هـي نظريـة الثـورة الدائمـة.

أوضـح تروتـسكي أن البرجوازيـة الروسـية لـم تكـن لهـا أيـة مصلحـة في إسـقاط القيصريـة والإقطـاع. ولذلـك فإنـه لا يمكـن إتمـام الثـورة البرجوازيـة الديمقراطيـة إلا إذا اسـتولت الطبقـة العاملـة على السـلطة على رأس تحالـف مـع الـفلاحين. لكـن الطبقـة العاملـة لـن تكتفي، بطبيعـة الحـال، بإقامـة جمهوريـة برجوازيـة. وهكـذا سـوف تتطـور الثـورة البرجوازيـة إلى ثـورة اشتراكيـة.

لقـد تأكـدت نظريـة تروتـسكي تمامـا مـن خـلال تجربـة الثـورة الروسـية واسـتيلاء السـوفيتات على السـلطة في أكتوبـر 1917. ومنـذ ذلـك الـحين يمكـن رؤيـة منطـق الثـورة الدائمـة في الثـورات في جميـع أنحـاء العالـم: مـن فيتنـام إلى فنزويلا، ومـن سـوريا إلى السـودان، وغيرهـا.

دفاعا عن الماركسية

خـاض تروتـسكي النضـال نفسـه ضـد مـن ادعـوا أنهـم الورثـة الشرعيـون لإرث ليـنين، مثـل سـتالين وبوخارين، الذيـن جمعـوا بين التكيـف قـصير النظـر مـع «الوقائـع القائمـة» في تلـك اللحظـة، وبين منهـج صـوري سكولاسـتيكي للغايـة في تطبيـق النظريـة الماركسـية.

وقـد حـذر مـن أن: «مـن يعمـل في مجـال النظريـة بتصنيفـات مجـردة محكـوم عليـه بالاسـتسلام الأعمـى للواقـع»[3].

وهكـذا فإنـه بعـد أن هـدأت الموجـة الثوريـة التي أعقبـت الحـرب العالميـة الأولى، أعلـن سـتالين في خريـف 1924 عـن نظريـة «الاشتراكيـة في بلـد واحـد» الغريبـة كليـا عـن الماركسـية. وفقـا لتلـك النظريـة، كان بـإمكان الاتحـاد السـوفياتي بنـاء النظـام الاشتراكي الجديـد بالكامـل داخـل حـدوده، دون الحاجـة إلى اسـتيلاء الطبقـة العاملـة على السـلطة في البلـدان الرأسـمالية المتقدمـة.

تـم اتهـام تروتـسكي، الـذي عـارض ذلـك التحريـف لأحـد المبـادئ الأساسـية للماركسـية، بـ«التشـاؤم»، وبالاعتقـاد أن الثـورة «محكـوم عليهـا بالفشـل». لمـاذا؟ لأن سـتالين جـادل بأنـه إذا لـم يكـن بـالإمكان بنـاء الاشتراكيـة في روسـيا آنـذاك فإنـه «**مـا كان ينبغـي لنـا أن نسـتولي على السـلطة في أكتوبـر 1917**». [التشـديد في الأصـل][4].

وبهـذا كـرر سـتالين ومعاونـوه الحجـة نفسـها التي سـاقها المناشـفة. لكـن بينمـا اسـتخدم المناشـفة ذلـك المنطـق الصـوري ليسـتنتجوا أن العمـال مـا كان ينبغـي لهـم الاسـتيلاء على السـلطة، فـإن السـتالينيين قلبـوا منطقهـم رأسـا على عقـب: بمـا أن العمـال قـد اسـتولوا على السـلطة، فلا بـد أنهـم قـادرون على بنـاء الاشتراكيـة.

وقـد أدت تلـك الطريقـة المنشـفية إلى سياسـات منشـفية بطبيعـة الحـال. وبنـاء على ذلـك فقـد تلقى الشـيوعيون الصينيـون الأمـر بالخضـوع لحـزب قومي برجـوازي، هـو الكومينتانـغ، بحجـة أن الـصين كانـت أمـام «ثـورة وطنيـة برجوازيـة».

أدى ذلـك النهـج إلى سلسـلة مـن الهزائـم والأزمـات، داخليـا وخارجيـا. لكـن وحتى عندمـا غيرت الحكومـة السـوفياتية مسـارها فجـأة سـنة 1928، فقـد ظـل نهجهـا الصـوري ثابتـا.

ويتجلى الدليـل الأبرز على ذلـك في نظريـة «الاشتراكية الفاشـية» سـيئة السـمعة: فبمـا أن كلا مـن الفاشـيين والاشتراكـيين الديمقراطـيين يدعمـون الرأسـمالية؛ فـإن الاشتراكيـة الديمقراطيـة بالتـالي ليسـت سـوى «الجنـاح المعتـدل» للفاشـية. وليـس هـذا فحسـب، بـل تـم اعتبارهـا «الركيزة الأساسـية لديكتاتوريـة رأس المـال»[5].

وكانـت النتيجـة العمليـة لهـذه «النظريـة» المزعومـة هـي انقسـام الطبقـة العاملـة وشـلّها، ممـا أدى إلى انتصـار هتلـر.

ومـرة أخـرى اضطـرت الأمميـة الشـيوعية إلى تغـيير مسـارها. لكـن مـع كل تحـول في السياسـة، ظهـرت مراجعـة جديـدة للماركسـية، مصحوبـة بمجموعـة جديـدة مـن «الاقتباسـات» مـن لينـين، منتزعـة مـن سـياقها ومحرفـة لإثبـات أن موقـف القيـادة كان صحيحـا «بـشكل عـام»، سـواء قبـل التحـول أو بعـده.

ثـم نُفـذت عمليـة «إعـادة تثقيـف» الصفـوف تلـك عـن طريـق التشـهير والطـرد وحتى القتـل. لـم يقتـصر أثـر كل ذلـك على اسـتئصال الفكـر المـاركسي مـن صفـوف الأمميـة الشـيوعية فحسـب، بـل أدى إلى اسـتئصال أي فكـر مـن أي نـوع، باسـتثناء التبعيـة العميـاء لـ«خـط الحـزب».

لـم تنشـأ معارضـة تروتـسكي لتلـك الأفكار مـن مجـرد خلافـات حـول سياسـة الحكومـة السـوفياتية، ولا مـن أي صراعـات أو مكائـد شـخصية على السـلطة؛ بـل كانـت نضـالا للدفـاع عـن جوهـر الماركسـية نفسـه.

لكـن نضـال تروتـسكي لـم يقتـصر على الدفـاع عـن الماركسـية ضـد السـتالينيين، بـل خـاض لاحقـا نضـالا مماثلا ضـد أولئـك الذيـن انضمـوا إلى رايـة المعارضـة اليساريـة الأمميـة بدافـع معـاداة السـتالينية، دون أن يكونـوا قـد اسـتوعبوا حقـا أفكار الماركسـية ومنهجهـا.

بفعـل الضغـط الهائـل للـرأي العـام البرجـوازي، عارضـت شريحـة مـن التروتسـكيين في الغـرب دفـاع تروتـسكي المطلـق عـن الاتحـاد السـوفياتي خلال الحـرب العالميـة الثانيـة. جادلـوا بأنـه لـم يعـد بـالإمكان اعتبـار الاتحـاد السـوفياتي دولـة عماليـة، أو دولـة انتقاليـة بين الرأسـمالية والاشتراكيـة، وذلـك بسـبب الدكتاتوريـة الوحشـية والسياسـات الرجعيـة للبيروقراطيـة السـتالينية.

ومـن اللافـت للنظـر أن بعضـا مـن أغنى كتابـات تروتـسكي في أعوامـه الأخيرة لـم يكرسـها فقـط للـرد السـياسي على ذلـك التراجـع البرجـوازي الصـغير عـن الماركسـية، بـل كذلـك للدفـاع الحثيـث عـن الأسـس الفلسـفية للماركسـية نفسـها. وفي خضـم ذلـك النقاش قـدم تروتـسكي درسـا نموذجيًـا في الديالكتيـك:

«سـتكون المشـكلات الاجتماعيـة أسـهل بلا شـك لـو كانـت للظواهـر الاجتماعيـة طبيعـة مكتملـة دائمـا. لكـن ليـس هنـاك مـا هـو أخطـر مـن اسـتبعاد عنـاصر مـن الواقـع، بحجـة الكمـال المنطقي، عنـاصر تخالف اليـوم مخططـك وقـد تقلبـه رأسـا على عقـب غـدا. [...] إن المهمـة العلميـة، كمـا السياسـية، ليسـت إعطـاء تعريـف نهـائي لـسيرورة غير مكتملـة، بـل تتبُّـع جميـع مراحلهـا، وفصـل اتجاهاتهـا التقدميـة عـن اتجاهاتهـا الرجعيـة، وكشـف علاقاتهـا المتبادلـة، واسـتشراف مسـارات التطـور المحتملـة، وإيجـاد أسـاس للعمـل في ذلـك الاسـتشراف»[6].

وقـد شكلـت هـذه المنهجيـة دلـيلا لا يخطـئ لتروتـسكي طـوال حياتـه باعتبـاره ثوريـا ماركسـيا.

مبادئ البلشفية

انطلاقـا مـن منهجـه المـاركسي، يُعـدّ تعزيـز اسـتقلال البروليتاريـا ووعيهـا الطبقـي ونزعتهـا الأمميـة سـمة ثابتـة في جميـع كتابـات تروتـسكي ونشـاطه السـياسي.

مـا هـي، في نهايـة المطـاف، النتيجـة السياسـية العمليـة لنظريـة الثـورة الدائمـة؟ إنهـا تـعني أنـه ينبغـي على جميـع الشـيوعيين، مـع مراعـاة الظـروف

قادة سوفييت، يتقدّمهم فلاديمير لينين وليون تروتسكي جنبًا إلى جنب في الوسط، يحتفلون بالذكرى السنوية الثانية لثورة أكتوبر في الساحة الحمراء بموسكو، 7 نوفمبر 1919.

الموضوعية الفريدة لكل بلد، أن يحرصوا على الحفاظ على الاستقلال السياسي للبروليتاريا، ورفع وعيها وتنظيمها إلى مستوى الاستيلاء المباشر على السلطة على رأس جميع المضطهَدين.

وهذا ما قصده ماركس نفسه باستخدامه لهذا المصطلح. وكانت هذه هي «الأوهام الثورية» التي تعرضت للهجوم تحت مسمى «التروتسكية»، عندما صاغ المصطلح لأول مرة الليبرالي الروسي بافل ميليوكوف سنة 1907[7].

وكان هذا أيضا هو المضمون السياسي الجوهري للنضال الذي خاضه تروتسكي من أجل الدفاع عن تقاليد البلشفية بعد وفاة لينين.

ليس من قبيل المصادفة أن مصطلح «التروتسكية» انتشر على نطاق واسع بعد وفاة لينين سنة 1924. ففي ذلك الوقت كانت البيروقراطية المتنامية للاتحاد السوفياتي قد بدأت تنأى بنفسها عن الثورة العالمية، وتتجه نحو التوافق مع الفئات الأكثر ثراء من بين الفلاحين في الداخل ومع الرأسمالية الأجنبية في الخارج.

وفي مواجهة ذلك ناضل تروتسكي من أجل تعزيز الوضع الاقتصادي للطبقة العاملة في الاتحاد السوفياتي؛ وتعزيز المكانة السياسية للعمال داخل السوفييتات وداخل الحزب الشيوعي نفسه؛ والهدف الاستراتيجي المتمثل في نشر الثورة على الصعيد الأممي. لم يكن ذلك سوى الدفاع عن البرنامج الأساسي للحزب البلشفي عام 1917، والمبادئ التي تأسس عليها الاتحاد السوفياتي.

في هذا السياق، سارعت «الترويكا» المكونة من ستالين وزينوفيف وكامينيف إلى استغلال مصطلح «التروتسكية» لخلق خط فاصل مصطنع بين أفكار تروتسكي وأفكار لينين. وفجأة، في أواخر 1924، ظهرت في الصحافة السوفياتية موجة من المقالات تدافع جميعها عن «اللينينية» ضد «التروتسكية».

في الواقع، لم يكن هناك انقسام حقيقي بين تروتسكي ولينين. بل إن لينين نفسه سبق له أن قال إن تروتسكي بعد أن صار يعارض المصالحة مع المناشفة «لم يعد هناك بلشفي أفضل منه»[8].

لم يكن مصطلح «التروتسكية» يعجب تروتسكي قط. ولم يكن من قبيل الصدفة أنه وصف الحملة ضد «التروتسكية» بأنها «نضال ضد الإرث الأيديولوجي للينين»[9]. ولهذا السبب فإن تروتسكي وأنصاره لم يطلقوا على أنفسهم اسم تروتسكيين بل اسم «البلاشفة اللينينيين» للتأكيد على ذلك الترابط.

تحطيم كل العقبات

من المهم التأكيد على أن ذلك لم يكن مجرد صراع فكري. فقد كانت مبادئ تروتسكي النظرية والسياسية مترابطة بعزيمة ثورية لا تُقهر، والتي تُشكل بدورها سمة أساسية من سمات الماركسية.

وكما قال تروتسكي نفسه:

«يمكن أن يكون لديك ثوريون حكماء وثوريون جهلة، لكن لا يمكن أن يكون لديك ثوريون يفتقرون إلى الإرادة لتحطيم العقبات»[10].

كثيرا ما يكرر الشيوعيون مقولة لينين العميقة: «الماركسية قوية لأنها صحيحة»[11]. لكن من الضروري أيضا استخلاص النتائج العملية اللازمة. فالماركسية تطالبنا ليس فقط بالسعي وراء الحقيقة والتحدث بها، بل أيضا بفعل ما تقتضيه الحقيقة، مهما كانت المقاومة والصعوبات التي نواجهها. هذا هو معدن الثوريين.

أمضى تروتسكي حياته كلها مطاردا ومُجبرا على المنفى، من قبل السلطات القيصرية في البداية، ثم من قبل الستالينيين. وبعد أن رفضت «الديمقراطيات» المستنيرة السماح له بالدخول إلى أراضيها، اضطر إلى الذهاب إلى الجانب الآخر من العالم. تعرضت عائلته للمطاردة والاغتيالات، وعاش هو تحت تهديد دائم بالاغتيال.

لكن ورغم شدة الضغوط، فإنه لم يستسلم أبدا.

يمكنك أن ترى نفس العزيمة في حياة ماركس والعديد من الثوريين الآخرين عبر التاريخ؛ كما يمكنك أن تراها في النضال الباسل للمعارضين اليساريين داخل الاتحاد السوفياتي، الذين كانوا يغنون النشيد الأممي أثناء اقتيادهم إلى الإعدام خلال حملة التطهيرات الكبرى؛ وفي آلاف البلاشفة اللينينيين حول العالم، الذين كرسوا حياتهم لبناء قوى الماركسية الحقيقية، وذلك غالبا تحت وطأة التهديد بالقمع الشديد.

ضد العصبوية

ومع ذلك فإن دفاع تروتسكي الراسخ عن المبادئ الأساسية للبلشفية لم ينحط مطلقا إلى نزعة عصبوية. فقد أظهر دائما فهما عميقا لضرورة ربط برنامج الثورة الاشتراكية بالنضال الحقيقي للجماهير.

لقد ربط بشكل صريح بين النضال ضد العصبوية في الممارسة العملية وبين النضال ضد النزعة الصورية في النظرية:

«مع أن العصبوي قد يُقسم بالماركسية في كل جملة، إلا أنه النفي المباشر للمادية الديالكتيكية، التي تتخذ من التجربة نقطة انطلاق لها وتعود إليها دائما»[12].

سعى جاهدا إلى نقل المنهج الصحيح إلى الأممية الرابعة، بما في ذلك وصف لاذع للعصبوية في برنامجها التأسيسي:

«هؤلاء السياسيون العقيمون لا يحتاجون عموما إلى جسر على شكل مطالب انتقالية لأنهم لا ينوون العبور إلى الضفة الأخرى. إنهم ببساطة يتسكعون في مكانهم، مكتفين بتكرار نفس التجريدات الهزيلة. الأحداث السياسية بالنسبة لهم مناسبة للتعليق لا للعمل. ولأن العصبويين، كغيرهم من المخبطين وأصحاب الحلول السحرية، يسقطون أمام الواقع في كل خطوة، فإنهم يعيشون في حالة من الضيق الدائم، يشتكون من «النظام» و«الأساليب» ويغرقون بلا هوادة في مؤامرات صغيرة. وعادة ما يمارسون، في دوائرهم الخاصة، نظاما استبداديا»[13].

واختتم بتحذير شديد اللهجة:

«إن من لا يسعى لإيجاد طريق إلى الجماهير، ولا يجد الطريق إلى الجماهير، ليس مناضلا بل عبئا ثقيلا على الحزب. لا يصاغ البرنامج لأجل هيئة التحرير أو لقادة نوادي النقاش، بل للعمل الثوري للملايين. إن تطهير صفوف الأممية الرابعة من العصبوية والعصبويين الذين لا يرجى شفاءهم شرط أساسي لنجاح العمل الثوري»[14].

للأسف لم تتح لتروتسكي فرصة إكمال نضاله الأخير. فقد حرم عميل ستاليني الأممية الرابعة من قائدها البارز بضربة جبانة على مؤخرة رأسه في 20 غشت 1940.

خرج القادة الذين ورثوا الأممية من فوضى الحرب ومجازرها إلى عالم تغير جذريا. لكن بدون التوجيه النظري الحازم على يد تروتسكي لم يثبت أي منهم قدرته على عبور العتبة بين المرحلة السابقة والوضع الجديد الذي كان يتبلور، لا فكريا ولا عمليا.

وكما سبق لتروتسكي أن حذر، فقد كانت النتيجة هي انحطاط الأممية الرابعة إلى عدد لا يحصى من العصب المتناحرة الهامشية. وهذا ما يدعونا إلى توضيح ما **ليست عليه** التروتسكية.

لا تمت أي من المنظمات التي تدّعي اليوم اسم الأممية الرابعة بأي صلة إلى أفكار تروتسكي الحقيقية وأساليبه. بل هي في أحسن الأحوال مجرد تشويه ضار، لم تُسهم في الحركة إلا في تشويه سمعة التروتسكية بين شرائح واسعة من الطبقة العاملة.

إرث تروتسكي

لقد تم تحطيم الأممية الرابعة، لكن جوهر التروتسكية ما زال حيا. إنه استمرار للأفكار الحقيقية للماركسية وتقاليد الحزب البلشفي بقيادة لينين، التي ما تزال راهنية وضرورية اليوم كما كانت عند تأسيس الأممية الرابعة عام 1938.

في ذلك الوقت، كتب تروتسكي: «إن الأزمة التاريخية للبشرية تُختزل في أزمة القيادة الثورية»[15]. وتعتبر هذه الكلمات صادقة اليوم كما كانت عند كتابتها.

إن الحركة الشيوعية العالمية في حالة فوضى عارمة. فقد انحدرت العديد من الأحزاب التي نصّبت نفسها «ماركسية» إلى أحزاب إصلاحية، أو عصب هامشية، أو اختفت تماما من الساحة. وفي الوقت نفسه، يبحث ملايين الناس حول العالم عن إجابات، بل وأكثر من ذلك: إنهم يبحثون عن حركة، عن راية يتحدون تحتها.

إن أعظم إنجازات تروتسكي هو حفاظه على راية الماركسية النقية، ورفعها عاليا وسط كل الرعب والارتدادات الفكرية التي واجهته. فلنرفع هذه الراية، ولنستخدمها لبناء حزب عالمي للثورة الاشتراكية، حزب قادر على قيادة الطبقة العاملة، أخيرا، إلى النصر.

References online at **marxist.com/idom-51-references** or scan the QR code

إنضم للأممية الشيوعية الثورية

تروتسكي وثورة 1905 والثورة الدائمة

في صباح يوم 9 يناير (عند بوابات نارفا) (قبل عام 1925)، نقش فني لفنان مجهول.

ما تزال نظرية الثورة الدائمة، التي وضعها ليون تروتسكي في القرن العشرين، من أهم الأفكار وأكثرها تعرضا لسوء الفهم في التراث الماركسي. في هذه المقالة، يتعمق **الرفيق جو أتارد** في أصول أفكار تروتسكي، وكيف تشكلت بفعل أحداث ثورة 1905 في روسيا.

انفجرت الثورة الروسية عام 1905 كقنبلة مدوية، وبددت كل الشكوك حول الإمكانات الكفاحية للجماهير الروسية الكادحة، التي كانت ترزح تحت وطأة الاستبداد القيصري. ورغم أن العمال سُحقوا في نهاية المطاف بعد عام من الصراع المفتوح مع القيصرية، فإنهم وضعوا الأسس لمعارك أعظم قادمة.

كان ليون تروتسكي هو الوحيد تقريبا الذي أدرك الأهمية الحقيقية لثورة عام 1905، والتي سرعت تبلور الأفكار التي كان قد بدأ بتطويرها بالفعل لتصبح أعظم إسهاماته النظرية: الثورة الدائمة.

ثمة علاقة ديالكتيكية بين الأفراد والأفكار والأحداث. انخرط ليف دافيدوفيتش برونشتاين (الاسم الحقيقي لـ«ليون تروتسكي») في النشاط الثوري في سن المراهقة. لكن شخصية «تروتسكي» الناضجة لم تتبلور إلا بعد ثورة 1905، والتي قاد خلالها شخصيا سوفييت سان بيترسبورغ.

كان عام 1905 أيضا هو العام الذي دخلت خلاله الطبقة العاملة الروسية الشابة بشكل حاسم إلى مسرح التاريخ. وبمعنى ما فقد حقق تروتسكي والبروليتاريا الروسية قفزتهما الكبرى الأولى معا. بعد اثنتي عشرة سنة، عادت السيرورة التي أطلقتها «الثورة التمهيدية» لتنطلق من مستوى أعلى.

وكما كتب تروتسكي لاحقا فإنه: «في عام 1905، كانت الطبقة العاملة ما تزال أضعف من أن تستولي على السلطة؛ لكن الأحداث اللاحقة أجبرتها على اكتساب النضج والقوة. [...] لقد وصلت البروليتاريا إلى السلطة عام 1917 مستفيدة من الخبرة التي اكتسبها جيلها الأكبر سنا عام 1905»[1].

ليف برونشتاين

نظرية الثورة الدائمة لم تنبثق ببساطة من ذهن تروتسكي عام 1905، بل تأثرت بتجاربه الحياتية والظروف الموضوعية المحيطة به.

وُلد ليف برونشتاين عام 1879 لعائلة من المزارعين اليهود الميسورين في قرية يانوفكا الأوكرانية (التي كانت آنذاك جزءا من الإمبراطورية الروسية، والتي تسمى اليوم بيريسلافكا). كان الريف الروسي بيئة قاسية، حيث كانت عائلة برونشتاين تُصنّف ضمن «الشريحة المتوسطة». شهد ليف بأم عينيه قسوة الحياة الريفية، وتعاطف مع جماهير الفلاحين المضطهَدة. كما أنه اكتسب، في الوقت نفسه،

تقييما موضوعيا وغير رومانسي للفلاحين. وتلقى تعليمه في مدينة أوديسا وفقا للمناهج الأوروبية الحديثة، مما أبرز التخلف المريع ليانوفكا، وفتح آفاقه على عالم أوسع.

لم تكن لليف في صغره آراء سياسية تُذكر، باستثناء نفور مبهم من القيصرية. ويعود ذلك جزئيا إلى غياب أي مرجعية سياسية، إذ كانت ثمانينيات القرن التاسع عشر فترة ردة رجعية. ومع ذلك فإن الحكم الاستبدادي كان قد صار قيدا هائلا على تطور المجتمع، وأصبحت أيامه معدودة.

لم يشهد الإنتاج الزراعي أي تطور يُذكر منذ العصور الوسطى، وكان قد دخل في أزمة عميقة نتيجة ضغط السوق العالمية التي لم يستطع المنافسة فيها. ورغم أن الفلاحين كانوا قد تحرروا رسميا من نظام القنانة عام 1861، فإنهم استمروا في التعرض للنهب من قبل كبار ملاك الأراضي. وبينما كان القرن التاسع عشر يقترب من نهايته شهدت انتفاضات الأرياف ارتفاعا في عددها وقوتها. ودفع تأثير المنافسة والاستثمارات من طرف الاقتصادات الأكثر تقدما إلى حدوث تصنيع سريع، مع هجرة جماعية من الأرياف إلى المدن، مما أدى إلى ظهور بروليتاريا حضرية واسعة.

وخلال تسعينيات القرن التاسع عشر تسببت كل تلك التطورات، بالإضافة إلى نقص المحاصيل وانتشار المجاعة، في جعل المجتمع يغلي. وكتب تروتسكي لاحقا: «يمثل عام 1891 [...] التاريخ الرسمي لنقطة التحول السياسي في البلاد»[2].

وإلى جانب الاضطرابات في الأرياف ومطالبات المثقفين الليبراليين بالإصلاح الديمقراطي، كانت الطبقة العاملة الروسية الشابة قد بدأت تعلن عن نفسها بموجة من الإضرابات منذ منتصف ذلك العقد.

مع وفاة ألكسندر الثالث عام 1894، تبددت آمال الليبراليين في القيصر الجديد نيكولا الثاني عندما أكد تمسكه بعقيدة «الأرثوذكسية، والحكم الأوتوقراطي، والقومية»، ورفض التطلعات الديمقراطية ووصفها بأنها «أوهام لا معنى لها»[3].

في ذلك الوقت كان ليف برونشتاين يعيش في أوديسا، والتي هي مدينة ساحلية نابضة بالحياة، ذات طابع عمالي، وجو نضالي. كانت الأحداث تؤثر في ذلك المراهق الألمعي، وإن لم يكن ذلك التأثير يسير في خط مستقيم. فبعد فترة وجيزة من النزعة المحافظة، اتجه نحو نزعة يسارية متطرفة. وفي عام 1896، انتقل إلى بلدة نيكولايف الساحلية، حيث بدأ نشاطه السياسي. ترك دراسته في العام التالي، وعاش في مسكن جماعي بائس بين مجموعة صغيرة من الطلاب النارودنيين (حركة شعبوية كانت تنظر إلى الفلاحين باعتبارهم المؤهلين لقيادة الثورة).

لم ينجذب ليف إلى الماركسية الروسية، التي وصفها بأنها «ظلت أسيرة المزاج المحافظ في ثمانينيات القرن التاسع عشر [...] كانت تؤجل الثورة إلى أجل غير مسمى، وتميل عموما إلى اعتبار الاشتراكية مهمة مؤجلة إلى قرون من التطور التدريجي»[4]. استخدمت المجموعة التي كانت تسمى بالماركسيين الشرعيين، بقيادة بيتر ستروف، لغة شبه ماركسية للدفاع عن الرأسمالية الروسية وتشجيعها، مفضلين المساومة على الصراع الطبقي. ولاقت تلك الأفكار رواجا بين المثقفين الليبراليين، وتوافق مع نظرتهم الطبقية.

كانت أولى محاولات ليف في الكتابة السياسية مقالا **ضد** الماركسية، رفضته مجلة شعبوية (أي نارودنية) في أوديسا.

استمر نمو البروليتاريا الروسية بوتيرة متسارعة. تضخم عدد سكان المدن بنسبة 97% بين عامي 1863 و1897. وانتشرت المصانع الكبرى، بما في ذلك مصنعان في نيكولايف كانا يشغلان 8000 عامل مجتمعين.

ليون تروتسكي وزوجته ألكسندرا لفوفنا سوكولوفسكايا في المنفى، عام 1902.

في نهاية عام 1895، رفض طلاب سان بيترسبورغ وموسكو وكييف، بشكل جماعي، أداء قسم الولاء للقيصر الجديد. وتصاعدت حدة الإضرابات وازدادت راديكالية. وبلغت ذروتها بعد تتويج نيكولا الثاني سنة 1896، عندما أدى تدافع تسببت فيه الشرطة في مقتل وإصابة الآلاف. وردا على ذلك، اندلع إضراب في سان بيترسبورغ شارك فيه 30 ألف عامل، وكان الأكبر في تاريخ روسيا. كانت الأفكار الراديكالية تنتشر بسرعة بين المثقفين وجزء من الطبقة العاملة.

كان اتحاد النضال من أجل تحرر الطبقة العاملة، الذي أسسه لينين ويوليوس مارتوف وبليخانوف وألكسندر بوتريسوف، قد بدأ يكتسب حلقة صغيرة من الأنصار. كان ذلك الأمر مجهولا بالنسبة لليف برونشتاين، الذي ساعد في تأسيس مجموعة صغيرة تُدعى اتحاد عمال جنوب روسيا، على أسس ذات طابع «اشتراكي ديمقراطي» (أي ماركسي)، مما يظهر مساره أمام التأثير المتزايد للطبقة العاملة. تعرضت المنظمة لضربة ساحقة بفعل الاعتقالات التي طالتها سنة 1898، وحُكم على ليف بالنفي إلى سيبيريا لمدة أربع سنوات.

ليون تروتسكي

خلال فترة ستة أشهر قضاها في سجن ترحيل بموسكو، كرس ليف أخيرا نفسه لدراسة جدية للماركسية، بما في ذلك كتاب «المنظور الواحدي للتاريخ» (The Monist View of History)، لجورجي بليخانوف، وكتاب لينين الجديد «تطور الرأسمالية في روسيا». وبحلول الوقت الذي وصل فيه ليف وزوجته ألكسندرا لفوفنا وابنتهما الرضيعة إلى قرية إيركوتسك الريفية الموبوءة بالبعوض في سيبيريا سنة 1900، «كانت الماركسية قد أصبحت بلا شك أساس فلسفته»[5].

قال لاحقا إن هجومه على الماركسية صقل فهمه لها في نهاية المطاف: «لا يدوم إلا ما يُكتسب بالنضال»[6]. وفور وصوله إلى إيركوتسك، بدأ على الفور بكتابة مقالات ثورية تحت اسم مستعار «أنتيد أوتو»، مستوحى من قاموس إيطالي، مع تعليق ساخر مفاده أنه يريد أن يكون «الترياق الماركسي» ضد الصحافة البرجوازية.

ومع ازدياد الإضرابات والاحتجاجات الطلابية والاعتقالات، نما مجتمع المنفيين الراديكاليين. شكّل ذلك بيئة مهمة للتوضيح السياسي، حيث ناضل ليف ضد الأفكار اللاسلطوية والإصلاحية وأفكار الإرهاب الفردي. وتوصل، بشكل مستقل، إلى نفس استنتاج لينين حول ضرورة بناء حزب من الثوريين المحترفين،

وعـرض حججـه في مقـال أثـار جـدلا واسـعا في سـيبيريا.

عندمـا علـم ليـف بصحيفـة «إيسـكرا» -الصحيفـة الروسـية الجديـدة التي يرأسـها ليـنين- وحصـل على نسـخة مـن كراسـه «مـا العمـل؟»، قـرر، بدعـم مـن زوجتـه، ضرورة التواصـل مـع مجموعـة ليـنين وبليخانـوف. وباسـتخدام جـواز سـفر مـزور باسـم تروتسـكي (اسم سجان في أوديسا) فـرّ متخفيا تحت المعاطـف في عربـة فلاحين. ثـم أمضى بعـض الوقـت مـع أنصـار «إيسـكرا» المحلـيين في سـامارا، يكتـب تحـت اسـم «بيرو» (القلـم): دلالـة على غـزارة إنتاجه.

عـام 1903 سـافر تروتسـكي، كما صـار يُعـرف آنـذاك، عبر النمسـا إلى لنـدن، حيـث كان لينـين يعيـش في المنفـى. وقـد أثـار الشـاب الموهـوب القـادم مـن سـيبيريا إعجـاب ليـنين، الـذي دعـا إلى ضمـه إلى هيئـة تحريـر صحيفـة «إيسـكرا». عـارض بليخانـوف ذلـك الاقتراح بشـدة. كان الأب الروحـي للماركسـية الروسـية قـد بـدأ يشـعر في ذلـك الوقـت بـأن الأحـداث تتجـاوزه، ودفعـه شـعوره بعـدم الأمـان إلى العدوانيـة. كان ينظـر إلى الثـوري الشـاب النشـيط القـادم مـن سـيبيريا كتهديـد.

في تلـك الأثنـاء، أقـام تروتسـكي في لنـدن مـع مارتـوف وفيرا زاسـوليتش، وأصبـح مقربـا منهمـا. كان هـذان الزعيمـان المنشـفيان المسـتقبليان، قـد بـدءا يُظهـران حتى في عـام 1903، علامـات على الـلين تجـاه الليبراليـين والانتهـازيين البرجـوازيين الصغـار الذيـن يـدورون في فلـك الماركسـيين الـروس.

لقـد أريـق الكـثير مـن الـحبر عـن المؤتمـر الثـاني لحـزب العمـال الاشتراكي الديمقراطـي الـروسي [7]عـام 1903. ونحـن لا نـعتزم الخـوض في تفاصيـل ذلـك الحـدث، لكـن تروتسـكي انتهى بـه الأمـر إلى معارضـة ليـنين بشـأن مسـألة عضويـة الحـزب، واقتراحـه بإقصـاء «القـادة القدامـى» الخامـلين مـن هيئـة تحريـر صحيفـة «إيسـكرا».

ورغـم محـاولات ليـنين الدؤوبـة لشرح وجهـة نظـره في المؤتمـر، فـإن تروتسـكي لـم يقتنـع، وهـو مـا عـزاه لاحقـا إلى سـذاجة شـبابه (كان يبلـغ مـن العمـر 23 عامـا آنـذاك)، فـضلا عـن قربـه الشـخصي من مارتوف وزاسـوليتش وأكسـلرود، الذيـن كانـوا جميعـا قـادة الأقليـة («المناشـفة» بالروسـية). لكنـه أقـر لاحقـا بـأن مـا اعـتبره في البدايـة اسـتيلاء دكتاتوريـا على السـلطة لـم يكـن سـوى خطـوة ضروريـة مـن جانـب ليـنين لصهـر الماركسـيين الـروس في حـزب موحـد ومنضبـط مـن الثـوريين المـحترفين.

بعـد المؤتمـر، شـنّ تروتسـكي عـدة هجمـات لاذعـة على ليـنين، ممـا أدى إلى ابتعـاده عـن صفـوف الأغلبيـة (البلاشـفة). ورغـم أن تروتسـكي قـد انحـاز إلى المناشـفة في المؤتمـر الثـاني، فإنـه كان دائمـا أقـرب إلى ليـنين بخصـوص نقطـة الـخلاف الجوهريـة بين الفصيـلين، ألا وهـي موقفهـم مـن الليبراليـين، الذيـن قـال تروتسـكي (محقـا) إنهـم يخشـون العمـال والـفلاحين الـروس أكثر مـن خشـيتهم مـن القـيصر.

في مـارس، رفضـت هيئـة تحريـر صحيفـة «إيسـكرا»، التي صـارت خاضعـة لسـيطرة المناشـفة، نشر مقـال تروتسـكي عـن الحـرب الروسـية اليابانيـة، والـذي شـن فيـه هجومـا لاذعـا على الليبراليـة الروسـية. انفصـل تروتسـكي رسـميا عـن المناشـفة في شـتنبر عبر «رسـالة مفتوحـة إلى الرفـاق»، أرسـلها إلى صحيفـة «إيسـكرا» للـنشر، لكنهـا لـم تُـنشر قـط. وبقـي خـارج كلا الفصيـلين (اللذيـن انفـصلا كحـزبين مسـتقلين عـام 1912) حتى عـام 1917.

وبينمـا أقـرّ بخطئـه في معارضـة ليـنين في المؤتمـر الثـاني، فقـد عبّر لاحقـا عـن عـدم ندمـه على ذلـك، ولا على فترة ابتعـاده عـن ليـنين التي تلـت ذلـك.

كتـب قـائلا: «لقـد جئـت إلى ليـنين للمـرة الثانيـة متأخـرا عـن كثيريـن غيري، لكـنني جئـت بطريـقتي الخاصـة، بعـد أن خضـت غمـار تجربـة الثـورة والثورة المضـادة والحـرب الإمبرياليـة، وتأملـت فيهـا مليـا. ونتيجـة لذلـك فقـد جئـت أكثر يقينـا وجديـة مـن أولئـك «الأتبـاع» الذيـن رددوا، خلال حيـاة المعلـم، كلماتـه وإيماءاتـه -ليـس دائمـا في الوقـت المناسـب- لكنهـم ظهـروا، بعـد وفاتـه، على أنهـم ليسـوا سـوى أتبـاع عاجزيـن وأدوات غير واعيـة في أيـدي قـوى معاديـة»[8].

حدود الليبراليين

الانقسـامات بين «المتشـددين» و»الليـنين»، كمـا كان يُطلـق على البلاشـفة والمناشـفة، لـم تـزد إلا اتسـاعا مـع تسـارع الأحـداث. اندلـع إضراب قـويٌ في روسـتوف في نوفـمبر 1902، واجتاحـت موجـة مـن الإضرابـات جنـوب روسـيا بالتزامـن مـع انعقـاد المؤتمـر الثـاني للحـزب.

ازدادت الاضطرابـات الاجتماعيـة حـدة مـع انـدلاع الحـرب الروسـية اليابانيـة، التي سرعـان مـا تحولـت إلى كارثـة مذلـة لروسـيا القيصريـة. أدت الحـرب إلى حـدوث تحـول هائـل في الوعـي، كمـا لاحـظ تروتسـكي في مقـال رائـع عـام 1904:

«الجمـاهير، التي كانـت غير متطـورة سياسـيا بالأمـس، صـارت تواجـه اليـوم أحداثـا هائلـة. يجـب عليهـا أن تسـعى لفهمهـا. لقـد تسـبب طـول أمـد الحـرب في ظهـور رغبـة في التفـكير، وفي التسـاؤل عـن مـعنى كل ذلـك. وهكـذا، فـإن الحـرب، بينمـا أعاقـت لـفترة مـن الزمـن المبـادرة الثوريـة لآلاف النـاس، فقـد أيقظـت الفكـر السـياسي للـملايين»[9].

بـدأ الليبراليـون بتنظيـم أنفسـهم في مجالـس الزيمسـتفو (المجالـس المحليـة) للمطالبـة بـالإصلاح السـياسي، وأطلقـوا سلسـلة مـن الاجتماعـات

القيصر نيقولا الثاني وقواته خلال الحرب الروسية اليابانية.

السياسية تحت ستار «مآدب» للالتفاف على القيود القيصرية المفروضة على حق التجمع.

في يوليوز، تعرض وزير الداخلية بليفه، الذي كان قد حظر مجالس الزيمستفو، للاغتيال. فقام خليفته، سفاتوبولك ميرسكي، بالسماح لمجالس الزيمستفو بعقد مؤتمر وطني في نوفمبر 1904 كصمام أمان لمزاج المعارضة لدى المثقفين.

صاغ ذلك المؤتمر قائمة تضم 11 مطلبا، من بينها حرية التعبير، وحرية التجمع، وبرلمان، إلا أنه توقف بخنوع قبل المطالبة بدستور. أثار ذلك التطور حماس المناشفة، انطلاقا من منظورهم الميكانيكي القائل بأن البرجوازية الليبرالية هي من سيطيح بالنظام القيصري وتضع أسس دولة ديمقراطية برجوازية، والتي من المفترض أنها الخطوة التالية في التطور السياسي لروسيا.

في خريف سنة 1904 امتنعت صحيفة «إيسكرا» عن نشر سلسلة مقالات لتروتسكي، نُشرت لاحقا في كتيب بعنوان «حتى التاسع من يناير»، التي هاجم فيها بشدة كلا من مجالس الزيمستفو الليبرالية والماركسيين الشرعيين على حد سواء، لاقتصارهم على تقديم توسلات خاضعة للقيصر من أجل الحقوق الديمقراطية. وأكد أن الحكم الاستبدادي لا يمكنه أن يتعايش، ولن يتعايش، مع الديمقراطية، وأن أي تنازلات تُمنح اليوم سـتُنتزع غدا. واستنادا إلى موجة الإضرابات الأخيرة،

«أيها الجنود، أيها الشجعان! فأين مجدكم إذن؟» (1905)، لوحة لفالنتين سيروف، تُصوّر إما أحداث الأحد الدامي، أو تفريق مظاهرة في موسكو في أكتوبر 1905.

جادل تروتسكي بأن الطبقة العاملة، وليس مجالس الزيمستفو، هي من ستُطلق تلك الثورة الديمقراطية وتقودها، جاذبة وراءها الفلاحين الفقراء وقسما من المثقفين الراديكاليين:

«يجب على الطليعة القيادية أن تُوقظ كل شرائح المجتمع، وأن تُرسخ وجودها في كل مكان، وأن تُثير مباشرة قضايا النضال السياسي. عليها أن تُطلق النداء، وأن تفضح منافقي الديمقراطية. عليها أن تكشف كلا من الديمقراطيين والليبراليين. عليها أن توقظ، وتناشد، وتفضح، وأن تُطالب مرارا وتكرارا بإجابة على سؤال: «ماذا بعد؟». ودون أن تتراجع أبدا، عليها أن تُجبر الليبراليين الشرعيين على الاعتراف بعجزهم؛ عليها أن تفصل أي عناصر ديمقراطية عن الليبراليين وتُوجهها نحو الثورة»[10].

يتشابه هذا الموقف مع ما كان لينين قد طرحه قبل عقد من الزمن في كتابه «من هم «أصدقاء الشعب» وكيف يحاربون الاشتراكيين الديمقراطيين». لكن تروتسكي كان قد ذهب أبعد من ذلك، متوقعا أن الدور القيادي للطبقة العاملة يعني أن الثورة الوشيكة ستبدأ على الأرجح بـ»إضراب سياسي جماهيري، ليس إضرابا محليا، بل إضرابا على مستوى روسيا بأكملها»[11]. وأنه من شأن ذلك الإضراب أن يحطم وحدة الجيش، ويستقطب أفضل فئات المثقفين، وبالتزامن مع الاضطرابات في الريف، سيجذب الفلاحين إلى صفوف العمال. كانت تلك فكرة جديدة، فمع أن إمكانية حدوث مثل ذلك التطور قد لوحظت في بعض الأحيان في البلدان الرأسمالية المتقدمة، فإنه لم يُرَ شيء من ذلك القبيل في روسيا من قبل.

لكن وبحلول شهر يناير، تحول إضراب في مصانع بوتيلوف (بدأته نقابة أسسها البوليس القيصري) إلى موجة إضرابات شارك فيها 140 ألف عامل.

الأحد الدامي

في التاسع من يناير (جميع التواريخ حسب التقويم الروسي القديم)، تعرضت مسيرة سلمية للعمال والفلاحين، كانوا يحاولون تقديم عريضة إلى القيصر في القصر الشتوي، لإطلاق نار من قبل قوزاق مسلحين، مما أسفر عن مقتل المئات. أثار «الأحد الدامي»، كما صار يعرف لاحقا، موجة إضرابات واسعة النطاق امتدت إلى 122 مدينة ومقاطعة. كما انتفض الطلاب، وتحولت الجامعات الكبرى في سان بيترسبورغ وكييف إلى ساحات مفتوحة للتنظيم الثوري.

كان تروتسكي في جنيف عندما تلقى نبأ اندلاع ثورة 1905، بإضراب عام في جميع أنحاء روسيا، مثلما كان قد توقع. لكن ماذا سيحدث بعد ذلك؟ بالنسبة لتروتسكي يجب على العمال الذين أشعلوا فتيل الثورة أن يقودوا أي حكومة ثورية بعد سقوط النظام القيصري. قال:

«لا يمكن تحقيق انتصار الانتفاضة وانتصار الثورة إلا على يد البروليتاريا [...]

«لذلك فإن تشكيل الحكومة المؤقتة سيعتمد أساسا على البروليتاريا. وبعبارة أدق، **إذا حققت**

الانتفاضة نصرا حاسما، فسيتم منح السلطة لأولئك الذين قادوا البروليتاريا»[12]. [أي الحزب الاشتراكي الديمقراطي، التأكيد من عندنا]

في مقدمة كتاب «قبل التاسع من يناير»، التي كتبها ألكسندر هيلفاند، المعروف أيضا باسم بارفوس، في يناير 1905، ذكر أن البروليتاريا، بعد تصفية الحكم الاستبدادي والاستيلاء على السلطة، ستتوقع من الاشتراكية الديمقراطية إجراء إصلاحات تصب في مصلحتها. وأضاف أن مثل ذلك النظام «سيدفع بالتغيير الثوري إلى حدود أقصى من تلك التي تتوافق مع الملكية الخاصة والديمقراطية البرجوازية»[13]. وعند تلك النقطة، سينقلب «حلفاء» العمال الليبراليون الديمقراطيون عليهم، مما يعني أنه «سيكون من الضروري النضال أولا ضد الحكم الاستبدادي ثم ضد البرجوازية»[14].

كان تروتسكي وبارفوس شبه وحيدين في الاشتراكية الديمقراطية بهذا المنظور.

اتفق لينين مع تروتسكي وبارفوس حول أن البرجوازية الروسية الضعيفة والجبانة عاجزة عن إنجاز الثورة الديمقراطية. ومع ذلك فقد رأى أن تصورهما لم يُراع الفلاحين بالقدر الكافي. وبينما لا ندري على وجه اليقين ما إذا كان قد قرأ كتاب «قبل التاسع من يناير» كاملا، فقد وصف مؤلفه في مارس 1905 بأنه «ثرثار»، ووصف محتواه بأنه «مطنب بشكل مُبالغ فيه»، وخص مقدمة بارفوس بانتقاد لاذع[15].

كما اعترض على الشعار المبتذل «لا قيصر، بل حكومة عمالية!» الذي ظهر عام 1905 -والذي نُسب زورا إلى تروتسكي، ويُرجّح أنه من بارفوس- وذلك مرة أخرى بسبب استبعاده الفلاحين.

بدأ لينين، كعادته دائما، بتحليل موضوعي دقيق للوضع الراهن. رأى أن فكرة حكومة ديمقراطية ثورية لا تعكس التركيبة الطبقية لبلد ذي أغلبية فلاحية هي فكرة متناقضة في حد ذاتها. وطيلة عام 1905، عمل تروتسكي على صقل رؤيته للعلاقة بين الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين.

تروتسكي وبارفوس

كان بارفوس آنذاك منظرا بارزا في الحركة الماركسية، وقد عاش تروتسكي وعمل معه بشكل وثيق في المنفى. كان ينتمي إلى يسار الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، إلى جانب روزا لوكسمبورغ. وبالاستناد بشكل كبير إلى أعمال المؤرخ الليبرالي بافل ميليوكوف، تنبأ باندلاع سيرورة من الحرب والثورات على مستوى أوروبا: نتيجة لمقاومة الرأسمالية لقيود الدولة القومية. وقال إنها ستبدأ في روسيا.

جادل بأن الدولة القيصرية تطورت كجهاز بيروقراطي عسكري يعتمد على جيشه الضخم لمقاومة ضغوط الاقتصادات الأوروبية الأكثر تقدما. وقد اضطرت إلى الاستثمار في الصناعة للحفاظ على قوتها العسكرية، تاركة بقية المجتمع في حالة تخلف. وبذلك اعتمدت على الرأسمال الأجنبي. وقد وصف روسيا بأنها «متلق للإعانات من البورصة الفرنسية»[16].

قال بارفوس إن القيصر مضطر إلى نهب جواره لتعزيز استقلاله في وجه دائنيه وإثارة الحماس الوطني لصرف الأنظار عن الفساد المستشري في الداخل. لكن وبسبب فساد القيصرية تحديدا، من المحتم أن تخسر روسيا تلك الحروب الجديدة، مما يخلق أزمة ثورية وطنية، والتي ستؤدي، إلى جانب أخطائها العسكرية، إلى زعزعة استقرار القارة بأكملها. وفي فبراير 1904، كتب بارفوس مقالا يجادل فيه بأن الحرب الروسية اليابانية والأزمة الناتجة عنها كانت بداية تلك السيرورة:

«إن سيرورة التطور الرأسمالي العالمية تؤدي إلى **اضطراب سياسي** في روسيا. وهذا بدوره لا بد أن يكون له تأثيره على التطور السياسي لجميع البلدان الرأسمالية. ستهز الثورة الروسية العالم

«9 يناير 1905 في جزيرة فاسيليفسكي (الأحد الدامي)» (1905)، لفلاديمير ماكوفسكي.

ألكسندر بارفوس، وليون تروتسكي، وليو دويتش في سجن بتروبافلوفسكايا، عام 1906.

البرجـوازي. [...] **وقـد تلعـب البروليتاريـا الروسـية دور طليعـة الثـورة الاجتماعيـة**»[17]. [التشـديد مـن عندنـا]

خلال الحـرب العالميـة الأولى، انحـدر بارفـوس إلى شـوفيني قومـي ألمـاني وتاجـر أسـلحة. لكـن بعـد سـنوات، أشـار تروتسـكي إلى تـأثيره على نظريـة الثـورة الدائمـة، وقـال إن أفكارهمـا في بدايـة عـام 1905 كانـت «متقاربـة للغايـة»[18].

ومـع ذلـك فبينمـا انطلقـا مـن موقـف مماثـل، فقـد ذهـب تروتسـكي في نهايـة المطـاف إلى أبعـد مـن ذلـك بكـثير. إذ أن بارفـوس رأى أن الطابـع المتخلـف وشـبه الإقطاعـي لروسـيا لا يمكـن أن يـؤدي إلا إلى حـزب اشتراكي ديمقراطـي يعمـل كجـزء مـن حكومـة مؤقتـة برجوازيـة، على غـرار حـزب العمـال الأسـترالي آنـذاك. وتحـدث عـن تـولي العمـال السـلطة «مؤقتـا»، ونضالهـم ضـد نظـام الملكيـة الخاصـة لكـن دون القطيعـة معـه.

كانـت توقعـات تروتسـكي بشـأن مـدى قـدرة العمـال على التقـدم غير واضحـة في ينايـر 1905، لكـن الأحـداث صقلتهـا.

الفصل الأول من الثورة

وصـل تروتسـكي إلى كييـف في فبرايـر 1905، مسـتخدما جـواز سـفر باسـم عريـف متقاعـد. ثـم شـق طريقـه إلى مركـز حركـة الإضرابـات المتنامية، سـان بيترسـبورغ، وسرعـان مـا اكتسـب نفـوذا كـبيرا بين العمـال المضربين بفضـل خطاباتـه ومقالاتـه. لكـن وبعـد وشـاية مـن **عميـل منـدس** في صفـوف المناشـفة، اضطـر إلى الفـرار مجـددا إلى فنلنـدا.

تطـورت ثـورة 1905 على مراحـل. بلغـت الموجـة الأولى مـن الإضرابـات ذروتهـا بموافقـة القـيصر على «دسـتور بوليغين» في 6 غشـت، والـذي وعـد بتشـكيل مجلـس الدومـا - برلمـان منتخـب.

لاق دسـتور بوليـغين ترحيبـا مـن بافـل ميليوكـوف، زعيـم الحـزب الديمقراطـي الدسـتوري الليـبرالي (الكاديـت). فكتـب تروتسـكي رسـالة مفتوحـة إلى ميليوكـوف في غشـت 1905، هاجـم فيهـا الليبراليين لثقتهـم بالنظـام الاسـتبدادي ليمنحهـم الحقـوق الديمقراطيـة بـدلا مـن النضـال مـن أجـل انتزاعهـا، وهـي مهمـة تقـع بالتـالي على عاتـق العمـال والـفلاحين:

«أنتـم تصـوّرون المهـام التاليـة على أنهـا تعميـق منطقـي للدسـتور وتعزيـز لـه على أسـاس شرعيتـه؛ بينمـا تتمثـل المهـام في انتزاع المقومـات الماديـة للسـلطة مـن أيـدي الاسـتبداد مـن خلال انتصـار الثـورة. [...] كـم سـتكون الحريـة الروسـية بائسـة لـو كانـت رهنـا بكـم!»[19].

وفي يوليـوز، كتـب تروتسـكي مقـالا حـول خطـاب شـهير ألقـاه الاشتراكي الألمـاني فرديناند لاسـال عـام 1862، وضـع فيـه الأحـداث في روسـيا ضمـن سـياق عالمـي:

«إن التحـرر السـياسي، بقيـادة الطبقـة العاملـة الروسـية، يرتقـي بهـا إلى مسـتويات غير مسـبوقة تاريخيـا، ويزودهـا بوسـائل ومـوارد هائلـة، ويجعلهـا **المحـرك الرئيسي لتصفيـة الرأسـمالية عالميـا، وهو أمـر هيـأ لـه التاريـخ جميـع الشروط الموضوعيـة المسـبقة**»[20]. [التشـديد مـن عندنـا]

أي، بمـعنى آخـر، أن تروتـسكي رأى الثـورة في روسـيا بدايـة لـسيرورة سـتنتهي بإسـقاط الرأسـمالية على الصعيـد العالمـي.

وفي الشـهر نفسـه، كتـب لينـين كتـاب «خطتـا الاشتراكيـة الديمقراطيـة في الثـورة الديمقراطيـة»، والـذي أكـد فيـه أن العمـال وحدهـم القـادرون على دحـر القيصريـة، وتحقيـق نصر مـن شـأنه أن «ينقـل لهيـب الثـورة إلى أوروبـا»[21]. كانـت الأحـداث تُـشير بالفعـل إلى وجـود تقـارب بين الرجـلين.

سوفييت سان بيترسبورغ

بعـد فترة مـن الهـدوء، اندلعـت حركـة إضرابـات جديـدة في شـتنبر، بـدأت بـإضراب عمـال الطباعـة في موسـكو الذيـن كانـوا يطالبـون بزيـادة أجـر القطعـة لكل ألـف حـرف مطبـوع، بمـا في ذلـك علامـات الترقيـم، وتقليـص سـاعات العمـل.

وانـتشرت إضرابـات التضامـن في جميـع أنحـاء الـبلاد بحلـول أكتوبـر. توقفـت المصانـع والـسكك الحديديـة والبنـوك ومحطـات توليـد الطاقـة والمكاتـب الحكوميـة عـن العمـل. داهـم العمـال المضربـون متاجـر الأسـلحة وأقامـوا متاريـس للدفـاع عـن أنفسـهم ضـد الـدرك والقـوزاق. حضر جنـود متعاطفـون اجتماعـات العمـال، مؤكديـن أن ثلـث الجيـش «يقـف إلى جانـب».

كانـت الأريـاف بدورهـا في حالـة تمـرد. تعرضـت أكثر مـن ألفـي إقطاعيـة للتـدمير والإحـراق. عقـد الفلاحـون الأكثر تقدما سياسيا المؤتمـر الأول لاتحـاد الـفلاحين لعمـوم روسـيا في غشـت 1905، وآخـر في موسـكو في نوفمبر، ودعـوا إلى خـوض نضـال مـشترك وإضراب زراعـي عـام يُحسـم «بالاتفـاق مـع الطبقـة العاملـة»[22].

عـاد تروتـسكي إلى سـان بيترسـبورغ، في أكتوبـر، في ذروة الإضراب العـام، حـاملا معـه خطـة لإنشـاء منظمـة منتخبـة غير حزبيـة، تضـم منـدوبين، لتمثيـل العمـال. كان المناشـفة في سـان بيترسـبورغ قـد أطلقوا بالفعـل مثـل تلـك الدعـوة. لكـن العمـال لـم يكونـوا بحاجـة إلى مـن يدعوهـم.

بـدأ سـوفييت سـان بيترسـبورغ بنـواة مـن عمـال 50 مطبعـة، وسرعـان مـا تطـور ليصبـح معقـل الإضراب العـام. ونشـأت سـوفييتات أخـرى في مـدن وبلـدات أخـرى.

محاكمة سوفييت سانت بطرسبورغ، سبتمبر 1906 — يظهر تروتسكي في وسط الصف الثاني وهو يحمل أوراقًا (ديفيد كينغ).

في البداية، تبنت اللجنة المركزية البلشفية وقادتها في سان بيترسبورغ موقفا عصبويا مفاده أنه على السوفييت تبني البرنامج البلشفي كشرط مسبق لكي ينضموا إليه. إلا أنه عندما عاد لينين إلى روسيا في نوفمبر، قام بتصحيح ذلك الخطأ، الذي كانت القواعد البلشفية قد تجاهلته على أي حال.

وكما أوضح تروتسكي لاحقا فإنه:

«يمكن للمرء أن يكتب فصلا مفيدا عن اللينينيين دون لينين. [...] فهم عندما ينفصلون عن لينين في اللحظات الحرجة، يذهلون المرء بعجزهم التام»[23].

ألقى تروتسكي خطابه الأول أمام سوفييت سان بيترسبورغ في 16 أكتوبر في معهد التكنولوجيا. حضر ذلك الاجتماع نحو 100 مندوب منتخبين من طرف 200 ألف عامل، أي ما يقارب 50% من سكان العاصمة من الطبقة العاملة. برز تروتسكي باعتباره الزعيم السياسي للسوفييت، ثم رئيسا منتخبا له. كما أنه كتب جميع بياناته وقراراته، وحرر صحيفته «إزفستيا» (أخبار).

تعاون كلا فصيلي الحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي داخل السوفييت، إلى جانب الحزب الاشتراكي الثوري (الخلفاء السياسيين للنارودنيين). لم يُبد لينين أي اعتراض على أي من قرارات السوفييت، التي كان تروتسكي هو من كتبها جميعها، على الرغم من العداء السابق بينهما. وقد روى لوناتشارسكي في مذكراته حادثة دالة:

«أتذكر أن أحدهم قال في حضرة لينين: ‹[...] الرجل القوي داخل السوفييت هو تروتسكي›. للحظة بدا على وجه لينين شيء من الكآبة، ثم قال: ‹حسنا، لقد حقق تروتسكي ذلك بفضل عمله الدؤوب والمؤثر›»[24].

وأمام القوة الهائلة للإضراب العام ونفوذ السوفييت، اضطر الحكم المطلق إلى التراجع. ففي 17 أكتوبر، اضطر القيصر إلى تقديم بيان (كتبه الليبرالي سيرجي وايت، أول رئيس لمجلس الوزراء) يعد فيه بتنظيم اقتراع عام وتقديم الحريات المدنية والدستور. وفي نوفمبر، حاول تهدئة الفلاحين ببيان يعلن إلغاء أداء التعويضات عن الأراضي المخصصة لهم وتوسيع صناديق بنوك الفلاحين.

في ذلك السياق قال تروتسكي ساخرا: «الإضراب الذي بدأ بسبب علامات الترقيم [...] انتهى بإسقاط الاستبداد»[25]. تلك التنازلات الديمقراطية أكدت عمليا صحة فرضية تروتسكي:

«كان للانتصار الجزئي لإضراب أكتوبر، بالنسبة لي، أهمية نظرية وسياسية هائلة. لم تكن معارضة البرجوازية الليبرالية، ولا الانتفاضات الشعبية للفلاحين، ولا الأعمال الإرهابية للمثقفين، بل إضراب العمال هو الذي أخضع القيصرية للمرة الأولى»[26].

ومع ذلك فقد دعا تروتسكي إلى عدم التفاؤل المفرط. حيث ألقى خطابا من شرفة جامعة سان بيترسبورغ مزق خلاله نسخة من بيان أكتوبر، محذرا من أنه لا قيمة له، إذ يمكن إلغاؤه في أي وقت ما دام الحكم الاستبدادي قائما.

الثورة تبلغ ذروتها

لكن وعد الدستور أدى إلى حدوث انقسامات داخل صفوف الثورة، حيث شعرت الفئات المحافظة أن الأمور قد ذهبت أبعد مما ينبغي. وقد تساءل تروتسكي لاحقا: «ماذا كان على الكاديت، هؤلاء السياسيين ذوي المعاطف الطويلة، قادة المجالس الريفية هؤلاء، أن يفعلوا في مثل هذا الوضع؟ لقد انتظروا بصمت حتى بدأت الأمور الدستورية تتضح»[27]. كما صوتوا لصالح خطة الحكومة للتجنيد في صفوف الجيش، ووعدوا بالتصويت لصالح ميزانية الإمبراطورية.

استغل القيصر الانقسامات وأطلق العنان لهجمات عصابات «المئات السوداء» الفاشية ضد العمال والفلاحين. قام هؤلاء البلطجية «الوطنيون» بقتل ما بين 3500 و4000 شخص، وشوهوا ما يصل إلى 10.000 في 100 مدينة. «وهكذا انتقم النظام القديم من الإذلال الذي تعرض له!»[28]، كما كتب تروتسكي.

وبينما استسلم الليبراليون، فقد كان هناك ضغط من جانب أكثر العناصر راديكالية في صفوف السوفييتات لأجل المضي قدما. في 26 أكتوبر، قرر مندوبون من إحدى مناطق سان بيترسبورغ بشكل عفوي تطبيق نظام الثماني ساعات عمل في اليوم في مصانعهم بوسائل ثورية. وعلى خطاهم، دعا السوفييت جميع المصانع والمنشآت إلى تطبيق نظام الثماني ساعات عمل يوميا بأي وسيلة ممكنة. لقد كان العمال يتقدمون بمطالبهم بشكل عفوي.

وفي اليوم نفسه اندلع تمرد ثوري في قاعدة كرونشتادت البحرية، والذي تم قمعه سريعا بعد إعلان الأحكام العرفية. وتم تهديد قادة التمرد بالإعدام.

بولندا، التي استولت عليها، شهدت إضرابات واسعة النطاق ونضالات عمالية طوال العام، من بينها انتفاضة في لوودج (Łódź) تعرضت لقمع دموي في يونيو. تم وضع القسم الروسي لبولندا بالكامل تحت الأحكام العرفية في 28 أكتوبر. وفي 29 أكتوبر، نُفذ الإجراء نفسه في مقاطعات تشرنيغوف

وساراتوف وتامبوف، التي كانت قد شهدت تمردات للفلاحين.

عُقدت اجتماعات حاشدة للعمال على الفور للمطالبة باتخاذ إجراءات صارمة من طرف سوفييت سان بيترسبورغ. وفي 2 نوفمبر، انطلق إضراب عام بالإجماع في المدينة للمطالبة بإلغاء حكم الإعدام عن جنود البحرية المعتقلين، ورفع الأحكام العرفية في بولندا وفي جميع أنحاء روسيا. وأمام ذلك الضغط الهائل، تراجعت الحكومة مرة أخرى، وانتهى الإضراب المنتصر في 7 نوفمبر.

وبينما كان عمال سان بيترسبورغ يحتفلون بنجاحهم، كانت الثورة قد بلغت ذروتها. وكان مطلب يوم العمل من ثماني ساعات يُهيئ الظروف لاندلاع مواجهة حاسمة. ومع حلول نوفمبر، كان العمال في جميع أنحاء سان بيترسبورغ قد بدأوا بمغادرة مصانعهم وشركاتهم **بشكل جماعي** بعد انتهاء ثماني ساعات عمل. وفي بعض الحالات فرضوا يوم العمل من ثماني ساعات من خلال «الاستيلاء» على أماكن عملهم، وانتزاع السيطرة عليها من يد أرباب العمل. كان ذلك تصعيدا هائلا.

وتأكيدا لتحذيرات تروتسكي ولينين بعدم الثقة بها، أدانت البرجوازية الليبرالية في صحافتها حركة المطالبة بيوم عمل من ثماني ساعات. ووقف البروليتاريا وحيدة في وجه قوى الرجعية التي ازدادت تعنتا.

مرحلة الجزر

كان الرأسماليون يستفيقون من الصدمة القوية التي أحدثتها إضرابات أكتوبر ونوفمبر. بدأ أرباب العمل في سان بيترسبورغ بهجوم مضاد بدءا بموظفي القطاع العمومي والشركات المملوكة للدولة، حيث فرضوا إغلاقا شاملا، ما أدى إلى نزول آلاف العمال إلى الشوارع.

وبصفته رئيسا لمجلس سوفييت سان بيترسبورغ، أدرك تروتسكي أن العمال قد استنفذوا تكتيكات الإضرابات والاعتصامات إلى أقصى حد. عند تلك النقطة صارت الانتفاضة وحدها القادرة على تحقيق نظام الثماني ساعات عمل، وهو ما كان سيدفع الثورة حتما نحو غايتها المنطقية: الاستيلاء على السلطة. لكن ذلك الأمر انطوى على عدد من الصعوبات.

إذ أن الأمر يتطلب أولا الحصول على السلاح، وهو ما يستلزم الحصول على دعم شريحة واسعة من القوات المسلحة، أي الفلاحين بالزي العسكري. لم يتحقق ذلك الأمر، على الرغم من تعاطف شريحة كبيرة من الجنود مع الثورة، لا سيما قوات البحرية. وصارت القوات الموالية للنظام تُنشر بشراسة لفض اجتماعات العمال.

كانت المشكلة الأساسية تكمن في أنه بينما كانت سلطة مجلس السوفييت هائلة في سان بيترسبورغ، فإنه لم يكن ذلك هو الحال في بقية أنحاء روسيا. لم تنطلق الحركة الحقيقية للفلاحين إلا في عام 1906، حين كانت الثورة قد مُنيت بالهزيمة في المدن. وبذلك بقي العمال يخوضون معركة يوم العمل من الثماني ساعات (والتي هي في الواقع معركة على سلطة الدولة) دون دعم بقية البلد. وكان من شأن ذلك أن يؤدي إلى هزيمة ساحقة، تُوجه ضربة مُحبطة للطبقة العاملة الروسية بأكملها.

وهكذا ففي 12 نوفمبر، وبعد نقاش دام أربع ساعات، قرر مجلس السوفييت تعليق النضال من أجل يوم العمل من ثماني ساعات. قوبل القرار بغضب شديد من طرف العديد من العمال، الذين كانوا على أهبة الاستعداد للقتال حتى النهاية. وحدها السلطة الهائلة لمجلس السوفييت ما سمح بالانسحاب المنظم والمهيب، مما حافظ على قوى الثورة وتجنب الهزيمة الساحقة. وقد لخصت اللجنة التنفيذية الحملة بالكلمات التالية:

«ربما لم ننتصر في النضال من أجل يوم العمل من ثماني ساعات للجماهير، لكننا بالتأكيد انتصرنا في كسب الجماهير لأجل يوم العمل من ثماني ساعات. ومن الآن فصاعدا ستبقى صيحة الحرب: «ثماني ساعات وبندقية!»، خالدة في قلب كل عامل في سان بيترسبورغ»[29].

وقد تجلت حكمة ذلك الانسحاب المنظم، وعدم نضج الظروف للقيام بانتفاضة ناجحة، بشكل مأساوي في دجنبر.

وفي محاولة أخيرة لاستعادة زمام المبادرة السياسية، نشر سوفييت سان بيترسبورغ «بيانا ماليا» كتبه بارفوس، يدعو إلى مقاطعة مالية، وينتقد فساد النظام، ويطالبه بالكشف عن حساباته. كان ذلك بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير: فقد قرر النظام الاستبدادي القضاء على الثورة، واعتقل قيادة السوفييت بأكملها في 3 دجنبر.

ردّ عمال سان بيترسبورغ على الاعتقالات ونشر البيان المالي بإضراب عام في 8 دجنبر. لكنه كان أضعف بكثير من إضراب نوفمبر، إذ لم يشارك فيه سوى ثلثا عمال المدينة، وانهار بعد أربعة أيام. ومع وجود القيادة رهن الاعتقال وانحسار موجة الإضرابات، بات من الواضح أن الثورة قد تلقت ضربة قاضية.

ملصق لفيلم البارجة بوتمكين للمخرج سيرغي آيزنشتاين عام 1925، والذي يصوّر تمرد عام 1905.

المتاريس خلال انتفاضة موسكو، 25 ديسمبر 1905.

بلغت الأحداث ذروتها عندما سمع مجلس سوفييت موسكو نبأ اعتقال قيادة سوفييت سان بيترسبورغ، فدعا إلى إضراب عام في 7 دجنبر، سرعان ما تحول الإضراب إلى انتفاضة. وبعد عشرة أيام من القتال في الشوارع، ومحاولات فاشلة للتآخي مع الجنود الموالين الذين تم نشرهم النظام ضدهم، تم سحق العمال المعزولين.

نتائج وتوقعات

أمضى تروتسكي الأشهر الخمسة عشر التالية في السجن، كتب خلالها، من بين أشياء أخرى، كتاب «نتائج وتوقعات»، وروايته عن ثورة 1905. وعلى عكس فترات سجنه السابقة، حيث كان ما يزال دارسا للماركسية، فقد كان قد أصبح معلما لها.

في كتابه «نتائج وتوقعات» صاغ أخيرا نظريته عن الثورة الدائمة، التي صقلتها أتون الثورة. وكما كتب لاحقا فإنه:

«خلال الفترة الفاصلة بين 9 يناير وإضراب أكتوبر 1905، تبلورت في ذهن المؤلف تلك الآراء التي أصبحت تُعرف بنظرية «الثورة الدائمة».»[30].

جوهر كتاب «نتائج وتوقعات» هو الدفاع عن المادية الديالكتيكية، التي هي المنهج الفلسفي للماركسية، بالاستناد إلى تجربة تروتسكي المباشرة في ثورة 1905. ويفضح فيه الاشتراكيين الديمقراطيين الذين استشهدوا بشكل ميكانيكي بأجزاء من تحليل ماركس وإنجلز لثورات 1848 «لإثبات» أن الثورة الاشتراكية في روسيا «مستحيلة». وقد ركزوا، على وجه الخصوص، على فقرة من كتيب إنجلز، «الثورة والثورة المضادة في ألمانيا» (الذي نُشر في الأصل باسم ماركس بإذن منه)، والذي اقتبسه تروتسكي في كتابه «نتائج وتوقعات»، يقول:

«إن الطبقة العاملة في ألمانيا، في تطورها الاجتماعي والسياسي، متخلفة عن نظيرتها في إنجلترا وفرنسا بقدر تخلف البرجوازية الألمانية عن برجوازية هاذين البلدين. فالعامل مثل رب العمل. [...] إن حركة الطبقة العاملة نفسها لا تكون مستقلة أبدا، ولا تكون ذات طابع بروليتاري خالص حتى تستولي جميع فصائل الطبقة الوسطى المختلفة، ولا سيما فصيلها الأكثر تقدمية، كبار الصناعيين، على السلطة السياسية، وتعيد تشكيل الدولة وفقا لاحتياجاتها»[31].

اعترض تروتسكي على هذا القول، معتبرا أنه «أُسيء استخدامه بشكل كبير من قِبل الماركسيين النصوصيين»، فبزعمهم أنه بما أن الرأسماليين الروس (مثل نظرائهم الألمان عام 1848) لم يستولوا بعد على السلطة ويعيدوا تشكيل الدولة على صورتهم، فإنه على العمال ببساطة أن يصطفوا وينتظروا دورهم. أي أنهم باختصار اختزلوا أفكار ماركس وإنجلز إلى «صيغة» جامدة وآلية للتطور التاريخي تصوره على شكل مراحل منفصلة ومتطابقة. لكن هؤلاء السكولاستيكيين كانوا يفتقرون إلى أي فهم للمنهج الماركسي.

وكما أوضح تروتسكي فإن: «الماركسية هي قبل كل شيء منهج تحليل، ليس تحليلا للنصوص، بل تحليلا للعلاقات الاجتماعية. هل صحيح أنه، بالنسبة لروسيا، لا يمكن أن تكون هناك حركة عمالية مستقلة حتى تستولي البرجوازية على السلطة؟ يكفي فقط طرح هذه الأسئلة لنرى النظرة الصورية البئيسة التي تكمن وراء محاولة تحويل ملاحظة نسبية تاريخيا لماركس إلى مبدأ فوق- تاريخي»[32].

يتضح جليا من جميع أعمال ماركس وإنجلز أن منهجهما الحقيقي كان غريبا تماما عن منهج «الماركسيين النصوصيين». في الواقع لقد تحدث ماركس وإنجلز، في أعقاب أحداث عام 1848، عن استنفاذ البرجوازية لدورها التاريخي التقدمي. بل إن إنجلز، في نفس الكتاب الذي استشهد به المناشفة، استبعد الحكم البرجوازي باعتباره «مستحيلا إلى الأبد في ألمانيا».

الماركسية هي، قبل كل شيء، منهج للتحليل — لا لتحليل النصوص، بل لتحليل العلاقات الاجتماعية.

تروتسكي

ليس من قبيل المصادفة أن تروتسكي اقتبس مصطلح «الثورة الدائمة» من خطاب ماركس عام 1850 أمام الرابطة الشيوعية، حيث تحدث عن ضرورة جعل الثورة «دائمة» حتى يستولي العمال على وسائل الإنتاج في جميع قطاعات الاقتصاد الرئيسية.

وفيما يتعلق بروسيا، فقد اقترح ماركس وإنجلز أنه بدلا من المرور بمرحلة التطور الرأسمالي، يمكن للكومونة الفلاحية الروسية أن تنتقل مباشرة إلى «الشكل الأعلى للملكية الشيوعية»، **بشرط انتصار ثورة بروليتارية في الغرب**[33].

تطوير النظرية

استندت نظرية الثورة الدائمة عند ماركس إلى تحليله لثورات عام 1848، ولا سيما ثورتي فرنسا وألمانيا، حيث اعتمدت البرجوازية الأوروبية المفلسة سياسيا على الجماهير في نضالها ضد بقايا الإقطاع، لكن لتتحد لاحقا مع قوى «النظام»

لسحقها. لم يكن لا العمال ولا البرجوازية الصغيرة الحضرية قادرين على التخلص من «الجثة السياسية» للبرجوازية في اللحظة الحاسمة، وكانت البروليتاريا أضعف من أن تحقق ذلك بمفردها، إذ كانت ما تزال في مهدها.

لكن الأوضاع في روسيا عام 1905 كانت مختلفة. فقد طور تروتسكي كتابات لينين وبارفوس حول خصوصيات الاقتصاد والدولة الروسيين بمفهوم التطور المركب وغير المتكافئ. وجادل بأن الصناعة الروسية، تحت ضغط السوق العالمية، اضطرت إلى التطور إلى مستوى عال في المراكز الحضرية.

جادل تروتسكي بأنه، على عكس الغرب، لم تنشأ البرجوازية الروسية الأصلية من الاتحادات المهنية الحضرية لتشكل طبقة ذات مصالح مستقلة لتطوير الرأسمالية الروسية. بل تم تمويل الصناعة بالرأسمال الأجنبي، الذي حمى النظام الاستبدادي استثماراته، مستخدما جهاز الدولة القمعي الوحشي:

«وهكذا حقق الرأسمال الضخم الهيمنة الاقتصادية دون صراع. لكن الدور الهائل الذي لعبه الرأسمال الأجنبي في تلك السيرورة كان ضربة قاتلة لنفوذ البرجوازية الروسية السياسي»[34].

ونتيجة لذلك لم تستطع البرجوازية الروسية، الضعيفة والطفيلية منذ البداية، إنجاز مهامها التاريخية بشكل مستقل. وقد شعرت البرجوازية، في ظهرها، بتهديد البروليتاريا الصناعية القوية، أي تلك الطبقة الحضرية التي وقعت على عاتقها مهمة قيادة الثورة الديمقراطية في روسيا.

ورغم أن العمال الروس كانوا أقلية، فإن دورهم الاقتصادي الهائل وهياكلهم التنظيمية منحتهم قوة ونفوذا يفوقان عددهم بكثير. وفي عام 1905، أزاحوا البرجوازية، وأسسوا السوفييتات، ودخلوا في صراع ضد الحكم المطلق، وانتزعوا بمفردهم تنازلات ديمقراطية. وقد شرح تروتسكي طبيعة الثورة على النحو التالي:

«فيما يتعلق بمهامها المباشرة وغير المباشرة، تُعد الثورة الروسية ثورة برجوازية لأنها تسعى لتحرير المجتمع البرجوازي من قيود الاستبداد والملكية الإقطاعية. لكن القوة الدافعة الرئيسية للثورة الروسية هي البروليتاريا، ولذلك فإنها، من حيث طابعها، ثورة بروليتارية»[35].

أي، بعبارة أخرى، كان تخلف روسيا هو ما أجبر الطبقة العاملة على لعب الدور الحاسم في الثورة. لكن بعد انتزاع المكاسب الديمقراطية، كما قال تروتسكي، لن «يلتزم» العمال الصيغ التاريخية ولن يسلموا السلطة للبرجوازيين الليبراليين، بل سيعملون على تقديم مصالح طبقتهم. وهو الشيء الذي بدوره سيدفع الليبراليين إلى معسكر الثورة المضادة. وقد قدّمت ثورة 1905 والمعركة من أجل يوم العمل من ثماني ساعات لمحة عن ذلك.

منطق الثورة

جادل تروتسكي بأن المطالب «الدنيا»، مثل يوم العمل من ثماني ساعات، ستُقابل حتما بمقاومة شديدة من جانب أصحاب العمل، الذين لا يستطيعون تقديم مثل تلك التنازلات في ظل رأسمالية روسية متخلفة. وقد اتضح ذلك مجددا في إضراب نوفمبر. وبالمثل فإن أي محاولة جادة لحل المسألة الزراعية ستثير رد فعل عنيف من جانب الرأسماليين وملاك الأراضي شبه الإقطاعيين، اللذين كانا كلاهما يستفيدان من الوضع القائم. بل إن العديد من الرأسماليين كانوا هم أنفسهم ملاكي أراض.

لذا فإنه سيتعين على البروليتاريا -الطبقة التي قادت الثورة- أن تستولي على السلطة بنفسها. وعندما تقوم بذلك سيتحقق تطوير الصناعة وحل مسألة الأرض من خلال إدارة ديمقراطية للاقتصاد من قِبل العمال والفلاحين الفقراء. وهكذا سوف تتحول الثورة من ثورة برجوازية إلى ثورة اشتراكية في سيرورة ثورية «دائمة».

وجادل تروتسكي أنه علاوة على ذلك لن يقتصر تأثير الثورة على حدود روسيا، بل ستغدو شرارة لثورة أوروبية شاملة:

«إن تأثير الثورة الروسية على البروليتاريا الأوروبية هائل. فإلى جانب تدميرها للاستبداد الروسي، الذي هو المعقل الرئيسي للرجعية في أوروبا، ستخلق المقومات اللازمة للثورة في وعي الطبقة العاملة الأوروبية ومزاجها النضالي»[36].

وقد تأكد توقع تروتسكي بشكل كامل بعد ثورة أكتوبر عام 1917، والتي أعقبتها انتفاضات ثورية في المجر وألمانيا وإيطاليا وغيرها.

لم يكن انتشار الثورة على الصعيد العالمي مجرد احتمال، بل ضرورة حتمية لبقائها. أكد تروتسكي أنه في حين أن الظروف الموضوعية للثورة الاشتراكية كانت متوفرة على الساحة العالمية، والمتطلبات السياسية لاستيلاء العمال والفلاحين على السلطة متوفرة في روسيا، فإن قيام نظام

ملصق مُكرَّس للذكرى السنوية الخامسة لثورة أكتوبر وللمؤتمر الرابع لـالأممية الشيوعية.

بروليتاري فتي على قاعدة ظروف اقتصادية متخلفة لن يتمكن من البقاء طويلا ولن يبني الاشتراكية. وبالتالي فإنه:

«لن يكون أمام البروليتاريا خيار سوى ربط مصير حكمها السياسي، وبالتالي مصير الثورة الروسية برمتها، بمصير الثورة الاشتراكية في أوروبا»[37].

دور الفلاحين

في كتابه نتائج وتوقعات، سلط تروتسكي الضوء على الإمكانات الثورية للجماهير الفلاحية وضرورة كسبها إلى جانب العمال من خلال برنامج لمصادرة أراضي ملاكي الأراضي، وإنهاء عبء الضرائب عن فقراء الريف، والاعتراف بجميع عمليات المصادرة الثورية للأراضي. واتفق كل من تروتسكي ولينين على أن الثورة المنتصرة ستنتهي باستيلاء البروليتاريا على السلطة بالتحالف مع الفلاحين، مع وجود اختلاف دقيق ولكنه مهم في تصوراتهما.

في النصف الأول من عام 1905، جادل لينين (معارضا المناشفة) بأنه على الحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي المشاركة في أي حكومة ثورية تلي سقوط الحكم المطلق، والسعي لبناء «ديكتاتورية ديمقراطية للبروليتاريا والفلاحين». قال إن مسار التاريخ «يفرض على البروليتاريا الروسية مهمة تنفيذ الثورة البرجوازية الديمقراطية»، وهي مهمة «تواجه الشعب ككل، أي كامل كتلة البرجوازية الصغيرة والفلاحين»[38].

إن ديكتاتورية ثورية للبروليتاريا والفلاحين لن تمثل فقط التطلعات الديمقراطية لأغلبية الشعب، بل ستضع أيضا أفضل الأسس لتطوير الاشتراكية. وأوضح في كتابه «خطتا الاشتراكية الديمقراطية» أنه:

«مع التسليم بالطبيعة البرجوازية للثورة، التي لا يمكنها تجاوز حدود الثورة الديمقراطية، فإن شعارنا يدفع بهذه الثورة تحديدا، ويسعى إلى صياغتها في أشكال تحقق أكبر فائدة للبروليتاريا؛ وبالتالي، يسعى إلى كسب أقصى استفادة من الثورة الديمقراطية لتحقيق أكبر نجاح في نضال البروليتاريا من أجل الاشتراكية»[39].

ومرة أخرى فقد كان لينين، في رؤيته للثورة الديمقراطية، يحاول مراعاة التركيبة السكانية لروسيا، بأغلبيتها الساحقة من الفلاحين. أما تروتسكي، من جانبه، فقد فسر شعار «الديكتاتورية الديمقراطية» على أنه غامض و«حسابي» بشكل مقصود[40]، ويقبل باحتمالية أن يفوق عدد الفلاحين عدد العمال في الحكومة الثورية. وهذا بدوره حجب مسألة مَن مِن الطبقتين ستقود ذلك النظام.

كان تروتسكي أكثر حسما إذ أكد أنه **يجب** على العمال قيادة الفلاحين، الذين لم يسبق لهم في التاريخ أن لعبوا دورا مستقلا، والذين ستكسب ولائهم الطبقة التي ستحررهم من الإقطاع وتتمكن من تحديث الريف. فإذا لم يتحقق ذلك، سيصبح الفلاحون قاعدة للثورة المضادة، كما تجلى ذلك في الانتفاضة التي تم قمعها في موسكو. بحلول ربيع عام 1917، تخلى لينين عن شعاره القديم لصالح «كل السلطة للسوفييتات»، والذي كان في جوهره مطابقا بشكل كامل لموقف تروتسكي.

الإرث

بعد سنوات، لخص تروتسكي نظرية الثورة الدائمة على النحو التالي:

«لا يُمكن تصور النصر الكامل للثورة الديمقراطية في روسيا إلا في صورة دكتاتورية البروليتاريا المستندة إلى الفلاحين. دكتاتورية البروليتاريا، التي ستضع حتما على جدول أعمالها ليس فقط المهام الديمقراطية بل والاشتراكية أيضا، ستوفر في الوقت نفسه دفعة قوية للثورة الاشتراكية العالمية. ووحده انتصار البروليتاريا في الغرب الذي سيحمي روسيا من عودة البرجوازية ويضمن لها إمكانية إتمام البناء الاشتراكي»[41].

بعد ثورة 1905، ورغم أن الحكم المطلق بدا منتصرا ظاهريا، فإن الأمور كانت قد تغيرت. فبالرغم من فترة من الرجعية القاتمة، فإن الجماهير اكتسبت خبرة مباشرة في النضال الثوري. لقد تعلمت أساليب جديدة للنضال وبدأت في إنتاج قادة. ومن خلال تعميم دروس ذلك العام وتطوير نظرية الثورة الدائمة، قدم تروتسكي دليلا أساسيا للعمل.

لا يمكننا الجزم في ما إذا كان تحليل تروتسكي قد أقنع لينين، أو ما إذا كان لينين قد توصل إلى استنتاجاته بشكل مستقل. لكن المؤكد هو أن تروتسكي كان أول من استخلص الاستنتاجات الصحيحة من ثورة 1905، والتي عكست المنطق الموضوعي للسيرورة الثورية في روسيا. **ولولا نضال لينين لإعادة تسليح برنامج البلاشفة وفقا لجوهر هذه النظرية في أبريل 1917، لما استطاعوا حسم السلطة.** وقد تأكد ذلك من خلال تجربة المناشفة بعد فبراير 1917، الذين ربطوا مصيرهم بالحكومة المؤقتة البرجوازية لكيرنسكي، وكادوا أن يقضوا على الثورة.

استخدم تروتسكي براعته النظرية وخبرته في قيادة الجماهير الثورية ليقطع بشكل حاسم مع النزعة التخطيطية، مؤكدا على الجوهر الحقيقي للمادية الديالكتيكية باعتبارها منهجا لفهم الثورة ككائن حي وتحديد مهامها الحقيقية. شكل ذلك إنجازا خالدا، يرثه الماركسيون اليوم كأداة أساسية لفهم ديناميات النضال الثوري. ولذلك تُعد دروس ثورة 1905 مفتاحا لانتصار الطبقة العاملة في نهاية المطاف في الثورة الاشتراكية العالمية المستقبلية.

References online at
marxist.com/
idom-51-references
or scan the QR code

Wellred Books
wellred-books.com

تعرّف أكثر على ثورة 1905 الروسية من خلال السيرة الذاتية لليون تروتسكي.

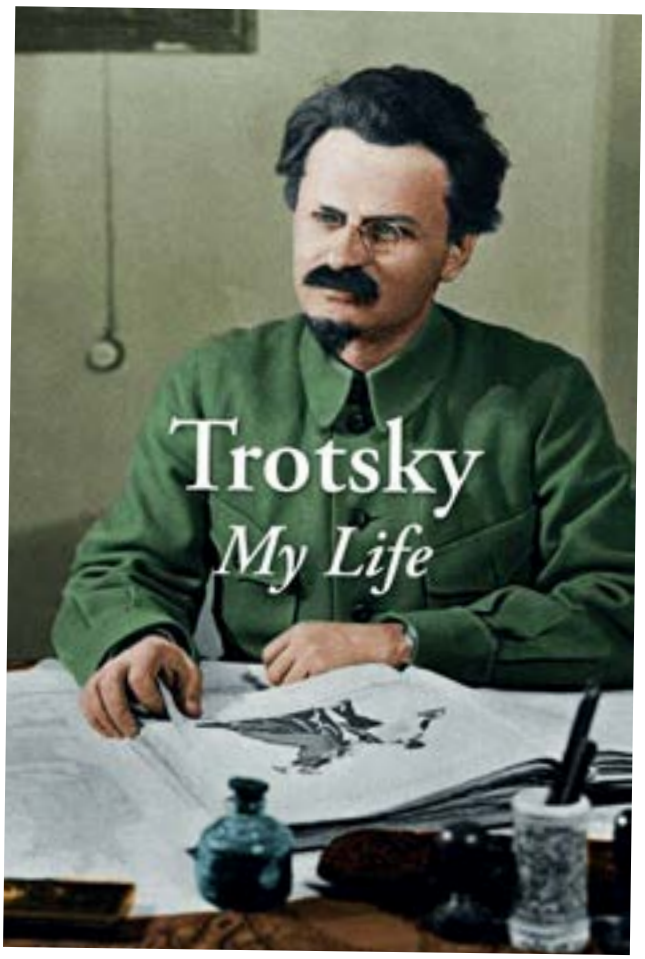

ما هي الثورة الدائمة؟

المسلمات الأساسية

المقتطف التالي هو الفصل الختامي من كتاب «الثورة الدائمة»، الذي كتبه ليون تروتسكي عام 1929، عقب طرده من الاتحاد السوفياتي. قبل ذلك بعامين، كانت الثورة الصينية (1927- 1925) قد تعرضت للهزيمة بسبب سياسة التعاون الطبقي التي فرضتها القيادة الستالينية للأممية الشيوعية على الحزب الشيوعي الصيني. ولذلك انتهز **تروتسكي** الفرصة لتصحيح المفاهيم الخاطئة حول نظريته عن الثورة الدائمة -التي تعرضت لهجوم وتشويه شديدين من قبل الستالينيين- ولشرح أهميتها المستمرة للشيوعيين في الصين وخارجها.

1- تتطلب نظرية الثورة الدائمة الآن الاهتمام الأكبر من قبل كل الماركسيين لأن مسار الصراع الطبقي والأيديولوجي قد أخرج هذه المسألة، بشكل حاسم ونهائي، من نطاق الجدال التاريخي القديم بين الماركسيين الروس وحولها إلى مسألة تتعلق بطابع الثورة العالمية وبترابطاتها الداخلية وأساليبها بشكل عام.

2- تعني نظرية الثورة الدائمة بالنسبة للبلدان ذات التطور البرجوازي المتأخر، وخاصة البلدان المستعمَرة أو شبه المستعمَرة، أن الحل الكامل والحقيقي لمهام **الديمقراطية** و**التحرر الوطني** فيها لا يمكن أن يتم إلا من خلال دكتاتورية البروليتاريا بوصفها قائدة للأمة المضطهَدة، وبشكل خاص لجماهيرها الفلاحية.

3- إن المسألة الزراعية وكذلك المسألة القومية تمنحان للفلاحين، أي الأغلبية الساحقة من سكان البلدان المتخلفة، مكانة استثنائية في الثورة الديمقراطية. فبدون تحالف البروليتاريا مع الفلاحين لن يكون من الممكن تنفيذ مهام الثورة الديمقراطية ولا حتى طرحها بجدية. لكن تحالف هاتين الطبقتين لا يمكن تحقيقه إلا من خلال خوض نضال لا هوادة فيه ضد نفوذ البرجوازية الوطنية الليبرالية.

4- مهما تكن طبيعة المراحل الأولى من الثورة في كل بلد بمفرده، فإن تحقيق التحالف الثوري بين البروليتاريا والفلاحين لا يمكن أن يتم إلا تحت القيادة السياسية لطليعة الطبقة البروليتارية المنظمة في الحزب الشيوعي. وهذا بدوره يعني أن انتصار الثورة الديمقراطية لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال قيام دكتاتورية البروليتاريا التي تعتمد على التحالف مع الفلاحين وتنفذ في البداية مهام الثورة الديمقراطية.

5- من منظور تاريخي لقد عبر شعار البلاشفة القديم «دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية» بدقة عن العلاقة التي سبق أن حددنا طابعها بين البروليتاريا والفلاحين والبرجوازية الليبرالية. وهذا ما أكدته تجربة أكتوبر. لكن صيغة لينين القديمة لم تجب

المتبادلة بين البروليتاريا والفلاحين داخل الجبهة الثورية؟ وبعبارات أخرى، احتفظت تلك الصيغة عن قصد بطابع صيغة عامة غير محددة، فكان لا بد لها من أن تفسح المجال أمام تحديدات ملموسة أدق في سيرورة التجربة التاريخية، ومهما يكن من أمر، فقد أكدت التجربة التاريخية، في ظروف لا تحتمل الشك، أنه مهما كان دور الفلاحين كبيرا فليس بإمكانهم أن يلعبوا دورا سياسيا مستقلا ولا أن يلعبوا دورا قياديا. إن الفلاح إما أن يتبع العامل وإما أن يتبع البرجوازي. وهذا يعني أنه لا يمكن فهم «دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية» إلا بوصفها **دكتاتورية البروليتاريا التي تقود وراءها الجماهير الفلاحية.**

6- إن دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية، بوصفها نظاما يتميز بمضمونه الطبقي عن دكتاتورية البروليتاريا، لا يمكن أن تتحقق إلا عندما تتوفر إمكانية تأسيس حزب سياسي **مستقل** يعبر عن مصالح الفلاحين بشكل خاص وعن مصالح العناصر الديمقراطية من البرجوازية الصغيرة بشكل عام، حزب يستطيع الاستيلاء على السلطة بهذا القدر أو ذاك من مساعدة البروليتاريا، وأن يحدد لنفسه برنامجا ثوريا.

يشهد التاريخ الحديث بأكمله، وبخاصة تجربة السنوات الخمس والعشرين الأخيرة في روسيا، أن الحاجز الذي لا يمكن إزاحته عن الطريق إلى تكوين حزب الفلاحين هو فقدان البرجوازية الصغيرة للاستقلال الاقتصادي والسياسي، والاختلافات العميقة الموجودة داخلها. لهذا السبب تقف القطاعات العليا من البرجوازية الصغيرة (ومن الفلاحين) إلى جانب البرجوازية الكبيرة في جميع القضايا الحاسمة، وخاصة في حالتي الحرب والثورة؛ بينما تقف القطاعات الدنيا منها إلى جانب البروليتاريا؛ بينما تجد القطاعات الوسطى نفسها مجرة على الاختيار بين القطبين النقيضين. بين الكيرنسكية وبين السلطة البلشفية، بين الكيومنتانغ وبين دكتاتورية البروليتاريا، لا توجد ولا يمكن أن توجد، أية مرحلة وسطى، أي لا يمكن أن توجد «دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية».

7- إن سعي الكومنترن الحثيث ليفرض على البلدان الشرقية شعار «دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية»، الذي تجاوزه التاريخ نهائيا ومنذ زمن بعيد، لا يمكن أن يكون له إلا أثر رجعي. وطالما استعمل هذا الشعار باعتباره بديلا لشعار «دكتاتورية البروليتاريا» فهو يساهم سياسيا في إذابة البروليتاريا في جماهير البرجوازية الصغيرة، وبذلك يخلق الظروف الأكثر ملائمة لهيمنة البرجوازية الوطنية وبالتالي لانهيار الثورة الديمقراطية. إن إدراج هذا الشعار في برنامج الكومنترن هو خيانة صريحة للماركسية ولتقاليد ثورة أكتوبر البلشفية.

8- إن دكتاتورية البروليتاريا التي ارتفعت إلى سدة الحكم بوصفها قائدة الثورة الديمقراطية سوف تجابه حتما وسريعا بمهام لا يمكن تنفيذها إلا بالمساس العميق بحقوق الملكية البرجوازية. عندئذ تتحول الثورة مباشرة إلى ثورة اشتراكية فتصبح ثورة **دائمة.**

9- إن استيلاء البروليتاريا على السلطة لا ينهي الثورة بل يبدأها فقط. ولا يمكن تصور البناء الاشتراكي إلا على أساس الصراع الطبقي على الصعيدين الوطني والأممي. وذلك الصراع، في ظل سيادة العلاقات الرأسمالية سيادة كاملة على الصعيد العالمي، سوف يؤدي حتما إلى حدوث انفجارات، أي إلى حروب أهلية في الداخل وحروب ثورية في الخارج. هنا تكمن الطبيعة الدائمة للثورة الاشتراكية بوصفها كذلك، بغض النظر عما إذا كان البلد المعني متخلفا، أي أنه انجز ثورته الديمقراطية حديثا، أم بلدا رأسماليا عريقا يحمل وراءه فترة طويلة من التقاليد الديمقراطية والبرلمانية.

10- من المستحيل إكمال الثورة الاشتراكية ضمن الحدود الوطنية. إن أحد الأسباب الجوهرية وراء أزمة المجتمع البرجوازي هو

ساحة كالوجسكايا، موسكو،
مارس 1917.

أن قوى الإنتاج التي خلقها المجتمع لم تعد تتوافق مع إطار الدولة القومية. وينتج عن ذلك الحروب الإمبريالية من جهة، والحديث الطوباوي عن «الولايات المتحدة الأوروبية» البرجوازية من جهة أخرى. إن الثورة الاشتراكية تبدأ على الصعيد الوطني وتكتمل على الصعيد **العالمي**. وهكذا تصبح الثورة الاشتراكية ثورة دائمة بالمعنى الجديد والواسع للكلمة؛ ولا تبلغ اكتمالها إلا عندما ينتصر المجتمع الجديد نهائيا فوق كوكبنا بأجمعه.

11- إن الصورة التي رسمناها أعلاه لتطور الثورة العالمية تستبعد قضية البلدان «الناضجة» أو «غير الناضجة» للاشتراكية والقائمة على **ذلك التصنيف المدرسي الجاف والميت** الذي يتضمنه البرنامج الحالي للكومنترن. فما دامت الرأسمالية قد خلقت السوق العالمية وتقسيم العمل العالمي وقوى الإنتاج العالمية، فإنها حضرت بذلك أيضا الاقتصاد العالمي ككل للتحويل الاشتراكي.

ستمر مختلف البلدان بهذه السيرورة **بوتائر مختلفة**. وقد تصل البلدان المتخلفة، في ظروف معينة، إلى دكتاتورية البروليتاريا قبل البلدان المتقدمة، لكنها ستصل بعدها إلى الاشتراكية.

إن بلدا متخلفا مستعمرا أو شبه مستعمر ليست طبقته العاملة مهيأة بما فيه الكفاية لتوحيد الفلاحين والاستيلاء على السلطة لا يستطيع بالتالي أن ينجز الثورة الديمقراطية. وعلى العكس من ذلك، ففي بلد تكون فيه السلطة بين أيدي البروليتاريا نتيجة للثورة الديمقراطية، يتوقف مصير الدكتاتورية والاشتراكية في التحليل النهائي ليس فقط، وليس بهذا القدر من الأهمية، على قوى الإنتاج الوطنية بقدر ما يتوقف على تطور الثورة الاشتراكية العالمية.

12- **نظرية الاشتراكية في بلد واحد التي نشأت من رحم الردة على ثورة أكتوبر، هي النظرية الوحيدة التي تناقض نظرية الثورة الدائمة بشكل كامل وحتى النهاية.**

وإن محاولة رجال الصف الثاني، تحت لسعات نقدنا، أن يحصروا تطبيق نظرية الاشتراكية في بلد واحد على روسيا وحدها، بسبب خصائصها المميزة (اتساعها ووفرة مواردها الطبيعية) لا تجعل الأمور أفضل بل تزيدها سوءا. إن القطيعة مع الموقف الأممي يؤدي دوما وأبدا إلى نزعة **مسيانية** (*Messianism*) قومية، أي إلى محاولة إضفاء مزايا وخصائص خاصة على بلد ما، يزعم أنها تؤهله ليلعب دورا تعجز بلدان أخرى عن لعبه.

إن تقسيم العمل على الصعيد العالمي، واعتماد الصناعة السوفياتية على التكنلوجيا الأجنبية، واعتماد قوى الإنتاج في بلدان أوروبا المتقدمة على المواد الخام الآسيوية، إلخ، إلخ، يجعل من بناء مجتمع اشتراكي مكتف ذاتيا في أي بلد بمفرده أمرا مستحيلا.

13- إن نظرية ستالين وبوخارين التي تسير في اتجاه مغاير لتجربة الثورة الروسية بأكملها، لا تقوم فقط بوضع الثورة الاشتراكية بشكل ميكانيكي في مقابل الثورة الديمقراطية، بل تخلق أيضا هوة سحيقة بين الثورة الوطنية والثورة العالمية.

تفرض هذه النظرية على الثورات في البلدان المتخلفة مهمة إقامة نظام الدكتاتورية الديمقراطية الذي يستحيل تحقيقه، كبديل عن دكتاتورية البروليتاريا. وهكذا تعمل هذه النظرية على إدخال الأوهام والخيالات إلى السياسة، وتشل نضال بروليتاريا الشرق من أجل الاستيلاء على السلطة وتعيق انتصار ثورات التحرر من الاستعمار.

إن استيلاء البروليتاريا على السلطة بحد ذاته يعني، على حد ادعاء نظرية رجال الصف الثاني، إنجاز الثورة («إلى درجة التسعة أعشار» حسب صيغة ستالين)، وبداية فترة الإصلاحات الوطنية. إن نظرية تطور الكولاك إلى الاشتراكية، ونظرية «تحييد» البرجوازية العالمية لا تنفصلان بالنتيجة عن نظرية الاشتراكية في بلد واحد. إنهما تقفان معا أو تنهاران معا.

بسبب نظرية الاشتراكية-الوطنية تقلصت الأممية الشيوعية إلى مجرد سلاح ثانوي ينفع فقط في الصراع ضد التدخل العسكري. إن السياسة الحالية التي ينتهجها الكومنترن، ونظامه والطريقة التي يختار بها أعضائه القياديين تتناسب تماما مع انحطاط الأممية الشيوعية إلى مستوى جهاز ثانوي غير مؤهل لتنفيذ المهام المستقلة.

14- إن برنامج الكومنترن الذي وضعه بوخارين برنامج تلفيقي جملة وتفصيلا. إنه محاولة يائسة للتوفيق بين نظرية الاشتراكية في بلد واحد وبين الأممية الماركسية، التي لا يمكن فصلها بأي حال من الأحوال عن الطبيعة الدائمة للثورة العالمية.

إن نضال المعارضة الشيوعية اليسارية من أجل سياسة صحيحة ونظام داخلي سليم في الأممية الشيوعية، يرتبط ارتباطا وثيقا بالنضال من أجل البرنامج الماركسي. ومسألة البرنامج لا تنفصل بدورها عن مشكلة النظريتين التي تنفي الواحدة منها الأخرى: نظرية الثورة الدائمة ونظرية الاشتراكية في بلد واحد. إن مسألة الثورة الدائمة قد تجاوزت منذ زمن بعيد الخلافات العرضية في الرأي التي كانت بين لينين وتروتسكي، والتي تجاوزها التاريخ نهائيا. إن الصراع الآن يدور بين الأفكار الأساسية لماركس ولينين من جهة، وبين انتقائية الوسطيين من جهة أخرى.

Wellred Books
wellred-books.com

تاريخ التروتسكية الصينية

يرتبط تاريخ الحزب الشيوعي الصيني ارتباطا وثيقا بالانحطاط الستاليني للأممية الشيوعية. في هذه المقالة، يستكشف **الرفيق كيني والاس** التاريخ المجهول لنضال القوى التروتسكية في الصين، التي ناضلت ببسالة للدفاع عن أفكار الماركسية الأصيلة وأساليبها رغم كل الصعاب.

يعد تاريخ التروتسكية الصينية جزءا غالبا ما يتم إغفاله في تاريخ الحركة العمالية الصينية. ويعود ذلك، بطبيعة الحال، إلى حد كبير إلى انتصار الحزب الشيوعي الصيني عام 1949 وإسقاط الرأسمالية بقيادة ماو، مما يضع بالضرورة أصول الماوية وتطورها في صدارة أي دراسة للماركسية في الصين. لكن هذا ليس السبب الوحيد.

تشن دوشيو عام 1927، و«المدّ الجارف» عام 1931، وهي مطبوعة علنية لـ«المعارضة اليسارية» في الحزب الشيوعي الصيني، وكان تشن رئيس تحريرها.

لقد حافظت قيادة الحزب الشيوعي الصيني على هيمنة الخط الرسمي عبر سياسة قمع يقظة وقاسية، ضد أي تيار قد يمثل بديلا سياسيا في أعين الطبقة العاملة الصينية، وخصوصا ضد التروتسكية.

يعود هذا الصراع الدؤوب لتحييد أي احتمال لظهور تيار تروتسكي في الصين إلى السنوات الأولى للمعارضة اليسارية في عشرينيات القرن الماضي. وبلغ ذروته باعتقال جميع التروتسكيين المعروفين في الصين والقضاء عليهم بين عامي 1951 و1952. وخلال تلك الحملة، تم القضاء على قوى التروتسكية الصينية وتدمير سجلاتها.

ومع ذلك فإنه من الخطأ الجسيم افتراض أن التروتسكية لم يكن لها أي تأثير داخل الحركة الثورية الصينية. في الواقع، انضم العديد من مؤسسي الحزب الشيوعي الصيني إلى المعارضة اليسارية بزعامة تروتسكي في عشرينيات القرن الماضي.

وفي ظل ظروف القمع الوحشي والثورة المضادة والحرب، ناضلت تلك المجموعة الصغيرة من التروتسكيين ببسالة للحفاظ على الأفكار والأساليب البلشفية الحقيقية في الصين، ولتأسيس قوة منظمة قادرة على إقامة روابط مع العمال في المدن. وقد أدركوا أن ذلك هو السبيل الوحيد لضمان نجاح الثورة الصينية على أسس سليمة.

لم يحقق ذلك النضال النجاح في نهاية المطاف. إلا أن تاريخ مواجهة التروتسكيين الصينيين للتحديات الهائلة لتلك الفترة يقدم دروسا مهمة

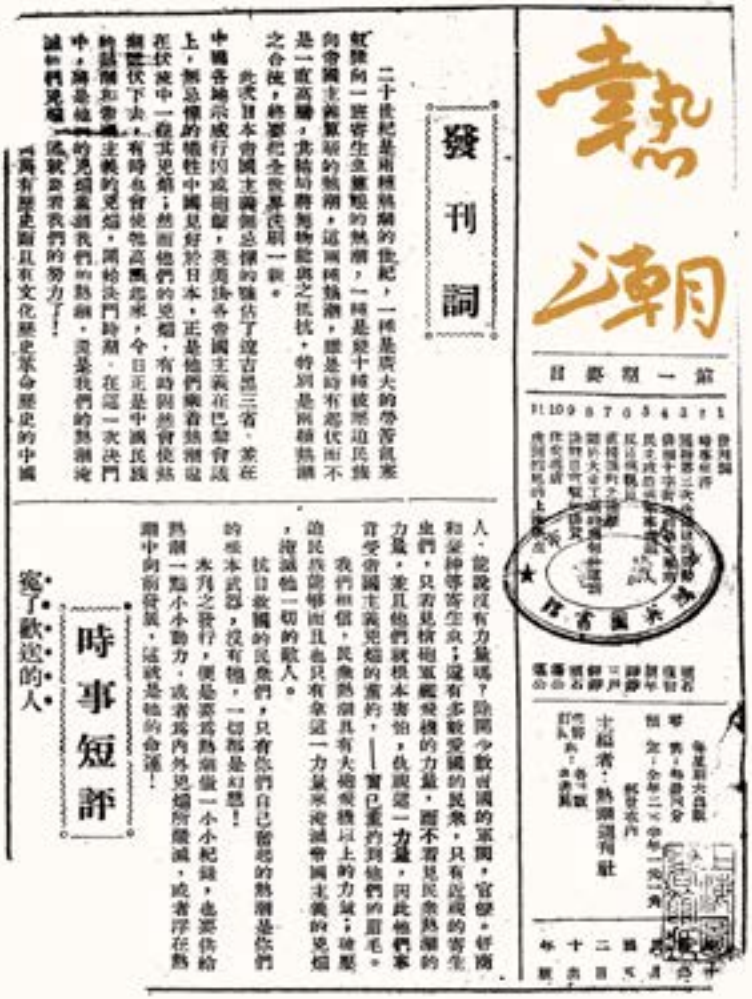

عديدة للشيوعيين الذين يسعون جاهدين اليوم لبناء أحزاب ثورية في جميع أنحاء العالم.

جذور الحزب الشيوعي الصيني

في الواقع تعود جذور التروتسكية الصينية إلى الأيام الأولى لتأسيس الحزب الشيوعي الصيني نفسه. تأسس الحزب الشيوعي الصيني على يد مجموعة صغيرة من الثوريين الذين ألهمتهم ثورة أكتوبر عام 1917، وكان تشن دوكسيو قائدهم الرئيسي.

كانت مساهمة تشن دوكسيو حيوية. قبل تبنيه للماركسية، كان بالفعل مفكرا راديكاليا مشهورا. كان شخصية بارزة في «حركة الرابع من ماي» التاريخية عام 1919، التي شهدت احتجاج آلاف الطلاب في جميع أنحاء الصين ضد الإمبريالية والإقطاع والفساد.

بنهاية تلك التجربة، أدرك تشن وأتباعه أن مجرد تطبيق الديمقراطية الليبرالية الغربية لا يمكن أن يحرر الصين من قيود الهيمنة الأجنبية. لقد رأوا في الثورة الاشتراكية سبيلا لتحرير الصين من الإمبريالية والتخلف، كما أثبت البلاشفة في روسيا.

في وقت انعقاد مؤتمره التأسيسي في يوليوز 1921، كان الحزب الشيوعي الصيني يضم حوالي 50 عضوا، جميعهم من المثقفين والطلاب. وقد استند المناضلون الذين أسسوا الحزب إلى أفكار لينين وتروتسكي، القائدين المعترف بهما للثورة الروسية. وبالطبع فقد كانت قيادة الحزب الشيوعي الصيني نفسها ما تزال حديثة العهد بالماركسية، وكانت تعتمد بالضرورة على توجيهات الأممية الشيوعية («الكومنترن»).

نما الحزب الشيوعي الصيني بسرعة، أولا بين الطلاب والمثقفين الشباب، ثم بين الطبقة العاملة. ومن مجموعة صغيرة من الرفاق في المؤتمر التأسيسي، نما الحزب إلى ألف عضو بعد أربع سنوات فقط في عام 1925. وبعد عامين على ذلك، أصبح لديه 57000 عضو في الحزب، وسيطر على الغالبية العظمى من النقابات العمالية.

عكس النمو السريع للحزب الشيوعي الصيني الجاذبية الهائلة التي حظيت بها ثورة أكتوبر بين العمال والشباب الصينيين الطليعيين. فقد اعتبروها مثالا لتحررهم. وقد لخص لي داتشاو، أحد مؤسسي الحزب الشيوعي الصيني، ذلك الشعور قائلا:

«جماهيرنا الكادحة، التي ترزح تحت وطأة اضطهاد مزدوج، بل متعدد، سمعت فجأة صرخة ثورة أكتوبر: «أسقطوا الرأسمالية العالمية!»، «أسقطوا الإمبريالية العالمية!»، صدحت هذه الصرخة في آذاننا بحدة خاصة وثقل خاص وأهمية خاصة»[1].

لكن قيادة الحزب الشيوعي الصيني كانت في تلك الأثناء قد بدأت تتلقى توجيهات مشوهة بشكل متزايد من قيادة الكومنترن، مما عكس الانحطاط البيروقراطي الذي كان يحدث داخل الاتحاد السوفياتي. وكانت لذلك عواقب وخيمة على تطور الحزب.

الكومينتانغ

كانت الصين في ذلك الوقت أقرب إلى بلد شبه مستعمر، أكثر من كونها دولة قومية، كانت مقسمة من قبل العديد من القوى الإمبريالية عبر وكلائها من أمراء الحرب الصينيين والبرجوازية الكمبرادورية (تلك الطبقة من الرأسماليين الذين عملوا كتجار ووسطاء بين رأس المال الأجنبي والسوق الصينية).

ظهرت طبقة عاملة صغيرة نسبيا في عدد قليل من المدن التي استثمرت فيها الإمبريالية الأجنبية بكثافة، مثل شنغهاي وغوانغدونغ وهونغ كونغ. كان العمال يخضعون لظروف قاسية، وفي بعض الحالات كانوا ينامون ما بين 30 و40 شخصا في الغرفة الواحدة، ويتعرضون للضرب عقابا على أخطاء في عملهم.

إلا أن الغالبية العظمى كانت من السكان فلاحين والذين كانوا عالقين في ظروف بالغة التخلف، يسيطر عليهم ملاك الأراضي الذين ارتبطت مصالحهم بالطبقة السائدة في المدن. كان الفلاحون، في كثير من الحالات، أشباه عبيد، يتضورون جوعا، ويرتدون ملابس رثة، ويُجبرون على دفع ضرائب باهظة تحت التهديد بالتعذيب. تشير التقديرات إلى أنه خلال السنة السيئة، قد تتوقع عائلة مكونة من سبعة أفراد أن يموت ثلاثة أو أربعة من أفرادها جوعا.

كان أهم حزب سياسي في الصين آنذاك هو الكومينتانغ (KMT): الحزب القومي الصيني. كان ذلك الحزب تحت سيطرة عناصر برجوازية بشكل رئيسي. لكنه كان يتمتع أيضا بمكانة معينة في أعين الجماهير، حيث كان زعيمه صان يات صن يُعتبر قائد الثورة الجمهورية عام 1911 التي أنهت قرونا من النظام الملكي في الصين.

شهدت أوائل عشرينيات القرن العشرين اندلاع موجة من الغضب ضد الإمبريالية بين شريحة واسعة من الجماهير الصينية. انضمت أعداد كبيرة من العمال والفلاحين، وكثير منهم كانوا يتجهون نحو اليسار، إلى الكومينتانغ بسبب عدم

على اليسار: النشرة التي نشرتها مجموعة تشن دوشيو في شنغهاي في نوفمبر 1920 (إيشيكاوا يوشيهيرو).

على اليمين: تشن دوشيو بعد اعتقاله عام 1921.

في الأسفل: هونغ كونغ، شارع كوينز رود سنترال في عشرينيات القرن العشرين.

الجلسة العامة الثالثة للجنة التنفيذية المركزية لـالكومينتانغ في مارس 1927 — يظهر ماو تسي تونغ ثالثًا من اليمين في الصف الثاني.

وجـود بديـل. وقـد مثـل ذلـك مشكلـة وفرصـة في آن واحـد للحـزب الشـيوعي الصـيني الـفتي. كان على الحـزب الشـيوعي الصـيني إيجـاد طريقـة للوصـول إلى تلـك الشريحـة التي تتطلـع إلى الكومينتانـغ وكسـبها دون زرع الأوهـام في مـا يسـمى بـ «البرجوازيـة الوطنيـة التقدميـة» المحيطـة بصـان يـات صـن.

في عـام 1922، اتخـذ الكومـنترن والحـزب الشـيوعي الصـيني سلسـلة مـن التـدابير للتواصـل مـع قواعـد الكومينتانـغ. وخلال المؤتمـر الثـاني للحـزب الشـيوعي الصـيني، تـم اتخـاذ قـرار بتشـكيل جبهـة موحـدة مـع الكومينتانـغ، مـع حفـاظ الحـزب الشـيوعي الصـيني على اسـتقلاله. وبعـد ذلـك بوقـت قـصير، وبعـد تدخـل ممثـل الكومـنترن، هينـك سـنيفليت (مارينـغ)، اقتنـع أعضـاء قياديـون في الحـزب الشـيوعي الصـيني بالانضمـام إلى الكومينتانـغ في محاولـة لكسـب قواعـده إلى الاشتراكيـة.

تبـع ذلـك في عـام 1923 تفاعـل مبـاشر بين الحكومـة السـوفياتية وبين صـان يـات صـن. عرضـت الحكومـة السـوفياتية على صـن المسـاعدة بالأمـوال والمعـدات العسـكرية، بالإضافـة إلى المسـاعدة في تعزيـز الهيـاكل التنظيميـة للكومينتانـغ كحـزب، في محاولـة لكسـبه إلى الماركسـية. وهكـذا بـدأ مـا عـرف لاحقـا باسـم «الجبهـة المتحـدة الأولى».

كان لتكتيـك الجبهـة المتحـدة تاريـخ طويـل في تطـور الحـزب البلشـفي. اتخـذت شكل اتفاقيـات مؤقتـة بين البلاشـفة ومنظمـات أخـرى للنضـال من أجـل أهداف محـددة على أسـاس «الـسير متفـرقين والضرب معـا».

كانـت الفكـرة أنـه مـن خلال العمـل المـشترك، يمكـن للشـيوعيين كسـب العمـال الذيـن مـا تـزال لديهـم أوهـام إصلاحيـة، وذلـك مـن خلال إثبـات تفـوق أفكارهـم وأساليبهم في الممارسـة العمليـة. نوقشـت هـذه الفكـرة في المؤتمـر الثالـث للكومـنترن عـام 1921، حيـث حـرص لينـين وتروتـسكي على التأكيـد على أن الشرط الأسـاسي لأي جبهـة متحـدة هـو الحفـاظ على الاسـتقلال السـياسي للحـزب الثـوري.

كان الهـدف مـن الجبهـة المتحـدة الأولى أن تكـون تطبيقـا لهـذا التكتيـك على الأوضـاع في الـصين، والتي هـي بلـد متخلـف وشـبه مسـتعمر، حيـث كانـت لشريحـة كـبيرة مـن الطبقـة العاملـة أوهـام في حـزب الكومينتانـغ البرجـوازي القومـي. لكـن وعلى النقيـض مـن المفهـوم اللينـيني للجبهـة المتحـدة، بـدأت الجبهـة المتحـدة الأولى بتنـازلات مهمـة على الصعيديـن السـياسي والتنظيمـي.

فمـن أجـل التوصـل إلى اتفـاق مـع صـان يـات صـن، وافـق ممثـل الحكومـة السـوفياتية، أدولـف جـوف، في بيـان صن-جـوف، الموقـع في 26 يناير1923، على أنـه «لا يمكـن اعتمـاد النظـام السـوفياتي في الـصين». كان هـذا يـعني عمليـا التنصـل علانيـة مـن الهـدف النهـائي للحركـة الشـيوعية.

أصـدرت اللجنـة التنفيذيـة للأمميـة الشـيوعية، بقيـادة غريغـوري زينوفييـف، تعليمـات للشـيوعيين بتأسـيس «كتلـة داخـل» حـزب الكومينتانـغ، مـن خلال الانضمـام إلى الكومينتانـغ بـشكل فـردي، مـع الحفـاظ على «اسـتقلال» الحـزب الشـيوعي الصـيني. استُخدمت سـلطة الأمميـة لضمـان قبـول تعليماتهـا في المؤتمـر الـوطني الثالـث للحـزب الشـيوعي الصـيني، في يونيـو 1923، على الرغـم مـن المعارضـة الكـبيرة على جميـع مسـتويات الحـزب.

كانـت القيـود التي فرضهـا حـزب الكومينتانـغ على الأعضـاء الشـيوعيين تـعني عمليـا أنهـم مضطـرون للخضـوع لانضبـاط وأهـداف القيـادة طيلـة فترة غير محـددة، دون أي حريـة في النقـد.

توجيـه اللجنـة التنفيذيـة للأمميـة الثالثـة ازداد سـوءا عندمـا بـدأ سـتالين في تعزيـز سـلطته في الاتحـاد السـوفياتي بعـد أن أصبـح لينـين عاجـزا بسـبب المـرض سـنة 1923.

بالاعتمـاد على بيروقراطيـة الدولـة الحـزب، طـرح سـتالين نظريتـه «الاشتراكيـة في بلـد واحـد» لأول مـرة في خريـف سـنة 1924.

وارتبـط هـذا التطـور بتحـول السياسـة الخارجيـة للاتحـاد السـوفياتي نحـو الدبلوماسـية والتعايـش مـع الرأسـمالية، بـدلا مـن الثـورة العالميـة. كانـت تلـك السياسـة تـعني في الـصين اتخـاذ موقـف ودي بـشكل متزايـد تجـاه القيـادة البرجوازيـة لحـزب الكومينتانـغ.

جادلـت غالبيـة اللجنـة التنفيذيـة الأمميـة بـأن الطبقـة العاملـة الصينيـة أضعـف مـن أن تقـود ثـورة، في بلـد فلاحـي ومتخلـف للغايـة. لذلـك، وفقـا لهـم، لا يمكـن أن تكـون طبيعـة الثـورة القادمـة إلا برجوازيـة ديمقراطيـة بطبيعتهـا، بقيـادة البرجوازيـة بـشكل رئـيسي. كان هـذا على الرغـم مـن حقيقـة أن البروليتاريـا الروسـية كانـت تـشكل نسـبة صـغيرة مـن الـسكان في عـام 1917، ومـع ذلـك نجحـت في الاسـتيلاء على السـلطة، بينمـا لعبـت البرجوازيـة الضعيفـة دورا معاديـا للثـورة بـشكل مبـاشر. في الـصين، كانـت البرجوازيـة أكثر ضعفـا، وأكثر اعتمـادا على الإمبرياليـة الأجنبيـة.

كانـت لـدى قـادة الكومـنترن أوهـام قويـة في زعيـم الكومينتانـغ تشـيانغ كاي شـيك، الـذي خلـف صـان يـات صـن في قيـادة الحـزب بعـد وفـاة هـذا الأخير. في الواقـع بـدا تشـيانغ آنـذاك مسـتعدا للتعـاون مـع موسـكو مقابـل الحصـول على المسـاعدات. حاولـت أغلبيـة اللجنـة التنفيذيـة الأمميـة كسـب تشـيانغ مـن خلال قبـول الكومينتانـغ «حزبـا منتسـبا» للأمميـة سـنة 1926، بـل وانتخبتـه «عضـوا فخريـا» في لجنتهـا التنفيذيـة. وحـده تروتـسكي مـن صـوت ضـد ذلـك القـرار.

كان موقـف اللجنـة التنفيذيـة للأمميـة الشـيوعية يتناقـض بـشكل مبـاشر مـع «أطروحـات حـول المسـألة القوميـة والمسـتعمرات»، التي أُقـرت في المؤتمـر الثـاني للكومـنترن في يونيـو 1920، والتي نصـت على أن:

«لا بـد مـن نضـال حـازم ضـد محاولـة تغليـف حـركات التحـرر الثوريـة غير الشـيوعية في البلـدان المتخلفـة بعباءة شـيوعية. [...] ينبغي على الأمميـة الشـيوعية أن ترافـق الحركـة الثوريـة في المسـتعمرات والبلـدان المتخلفـة في جـزء مـن الطريـق، بـل وأن تتحالـف معهـا؛ ومـع ذلـك فإنـه لا يجـوز لهـا الاندمـاج معهـا، بـل يجـب عليهـا الحفـاظ دون قيـد أو شرط على الطابـع المسـتقل للحركـة البروليتاريـة، حتى لـو كانـت في مراحلهـا الأولى»[2].

قـاوم تـشين دوكسـيو وغالبيـة قيـادة الحـزب الشـيوعي الصـيني بشـدة الأفكار المناهضـة للماركسـية القادمـة مـن موسـكو. ولذلـك، لجـأت

اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية إلى التهديد بالطرد لإخضاع قيادة الحزب الشيوعي الصيني. تفاقم ذلك الوضع سنة 1924، عندما فرض الكومنترن حظرا دائما على الحق في تشكيل التكتلات في جميع أحزاب الأممية، مما جعل المعارضة العلنية للقيادة أمرا غير ممكن.

كانت هذه التجربة هي التي خلقت معارضة ضد عملاء الكومنترن داخل الحزب الشيوعي الصيني منذ البداية.

نضال تروتسكي

كان تروتسكي، الذي خاض النضال للدفاع عن أفكار الماركسية الأصيلة ضد الانحطاط الستاليني للاتحاد السوفياتي والكومنترن، يتابع عن كثب التطورات في الصين.

اعترض تروتسكي دائما على تعليمات الكومنترن للحزب الشيوعي الصيني بالاتحاد والتعاون مع حزب الكومينتانغ البرجوازي، محذرا من خطر التعاون الطبقي. وبين عامي 1923 و1926، استمر تروتسكي يكرر مرارا التأكيد على ضرورة قطيعة الحزب الشيوعي الصيني مع حزب الكومينتانغ.

وأوضح تروتسكي أن البرجوازية الوطنية في الصين، كما كان الحال في روسيا، عاجزة عن إنجاز مهام الثورة البرجوازية الديمقراطية.

فمن جهة، تطورت البرجوازية الصينية باعتبارها طبقة «كومبرادورية» لا أكثر، مرتبطة ارتباطا وثيقا بمصالح الإمبريالية الغربية. وعلاوة على ذلك، فقد كانت البرجوازية الصينية مرتبطة، بل وجزءا من حفنة صغيرة من كبار ملاك الأراضي الذين يمتلكون 62% من الأراضي الصالحة للزراعة في الصين[3].

كانت تلك البرجوازية الضعيفة تخشى الحركة الثورية للطبقة العاملة أكثر من أي شيء آخر، ولذلك كانت عاجزة عضويا عن خوض أي نوع من النضال الحازم ضد الإمبريالية الأجنبية أو بقايا الإقطاع في الصين، وهو ما يعتبر من أهم مهام الثورة الصينية.

ومن جهة أخرى، جادل تروتسكي بأنه على الرغم من الضعف العددي للطبقة العاملة في الصين مقارنة بتركيبة السكان ذات الأغلبية الفلاحية الساحقة، إلا أن دورها الاقتصادي وثقلها الاجتماعي يعنيان أنها مع ذلك قادرة على لعب الدور القيادي في ثورة مستقبلية.

وبتبنيها لسياسة سليمة تقوم على توزيع الأراضي على الفلاحين، يمكن للطبقة العاملة بناء تحالف قوي قادر على دحر الإمبريالية، وإقامة نظام سلطة عمالية، كما حدث في روسيا عام 1917.

لكن للقيام بهذا الدور، تحتاج الطبقة العاملة إلى حزبها الخاص، المستقل طبقيا، والذي يجب ألا يزرع الأوهام حول القوميين البرجوازيين بين جماهير العمال والفلاحين.

كان ذلك تطبيقا من تروتسكي لنظريته «الثورة الدائمة». ستكون الثورة «دائمة» بمعنى أن الطبقة العاملة يجب ألا تقتصر على مساعدة البرجوازية على إقامة نظامها «الديمقراطي»، بل يمكنها بدلا من ذلك قيادة الثورة والاستيلاء على السلطة بنفسها بالتحالف مع الفلاحين.

وعلاوة على ذلك فإنه بمجرد استيلاء العمال على السلطة، لن يتوقفوا عند حدود إنجاز المهام الديمقراطية البرجوازية، مثل توحيد البلد والإصلاح الزراعي. بل سيدفعهم منطق النضال حتما إلى المضي قدما في إنجاز المهام الاشتراكية، كتأميم الصناعة. وأخيرا، كان لا بد للثورة من الانتشار على الصعيد العالمي لكي تتحقق النجاح، إذ من المستحيل بناء الاشتراكية في بلد واحد، وخاصة في بلد متخلف كالصين آنذاك.

في ذلك الوقت شن الستالينيون في الاتحاد السوفياتي صراعا فصائليا مريرا ضد المعارضة اليسارية بزعامة تروتسكي. عكس ذلك الصراع الصدام بين المصالح المحافظة للبيروقراطية الصاعدة، بقيادة وحماية ستالين، وبين التقاليد اللينينية الأصيلة، بتركيزها على تعزيز الديمقراطية العمالية والنضال من أجل الثورة العالمية. آنذاك تمكنت اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية، التي كان زينوفييف يرأسها آنذاك بالتحالف مع ستالين، من التغلب على تروتسكي مرارا.

كانت بيروقراطية موسكو تخشى أن تصل آراء تروتسكي إلى أعضاء الحزب الشيوعي الصيني، فشنت حملة تشهير ضده داخل ذلك الحزب. ومن خلال عملاء الكومنترن المتمركزين في شنغهاي (الذين كان يطلق عليهم اسم مكتب الشرق الأقصى)، بدأوا تلك الحملة بتقديم قرار مفاجئ في المؤتمر الرابع للحزب الشيوعي الصيني سنة 1925. وفي هذا القرار، شجبوا تروتسكي بتهمة غامضة مفادها أن انتقاداته لقيادة الكومنترن قد تستخدم من قبل أعداء الحركة الشيوعية العالمية[4].

ووفقا لتشنغ تشاولين، الذي حضر المؤتمر وأصبح لاحقا تروتسكيا صينيا، فقد صدم جميع الحاضرين بذلك القرار، إذ بدا وكأنه سقط من الفراغ. لكنهم لم يكونوا يحصلون إلا على رواية زينوفييف وستالين، ولم تكن لديهم أي وسيلة للوصول إلى كتابات تروتسكي. تمت المصادقة على ذلك القرار، بمساعدة بعض المتعاونين داخل قيادة الحزب الشيوعي الصيني الذين انضموا إلى التشهير بتروتسكي[5].

عندها صارت معارضة أي شيء يقوله تروتسكي هي النهج الرسمي للحزب الشيوعي الصيني. وتكررت السيرورة نفسها في الأحزاب الشيوعية حول العالم تحت قيادة زينوفييف في الكومنترن. كان ذلك يعني من الناحية السياسية عزل أو تصفية أولئك الذين يمثلون الأفكار والتكتيكات الأصيلة للشيوعية الثورية من القيادة بالكامل، وذلك باسم «بلشفة» الأحزاب الشيوعية، مما أدى إلى هزائم نكراء واحدة تلو الأخرى.

لكنه لا يمكن لأي كم من الأكاذيب والافتراءات أن يصمد أمام صدمة الأحداث.

ثورة 1925-1927

تزامن النمو السريع للحزب الشيوعي الصيني مع موجة ثورية هائلة اجتاحت الصين بين عامي 1925 و1927. وخلال تلك الفترة، حظي الحزب الشيوعي الصيني بدعم مئات الآلاف من العمال، إلا أن الكومنترن أصر على منعه من الفوز بقيادة الطبقة العاملة على أساس مستقل. وبدلا من ذلك، أمر الشيوعيون بالحفاظ على خضوعهم لما يسمى بـ«البرجوازية التقدمية» في حزب الكومينتانغ، حيث بدا تشيانغ كاي شيك وكأنه يخوض صراعا عسكريا

أعضاء المعارضة المتحدة عام 1927.

إعدام علني بقطع الرأس لشيوعي صيني في شنغهاي، عام 1927.

أدت تعليمات الأممية الشيوعية إلى هزيمة مأساوية للحزب الشيوعي الصيني والطبقة العاملة الصينية.

ضد أمراء الحرب المرتبطين بالمصالح الإمبريالية فيما عرف بـ «الحملة الشمالية».

وقد كانت أخطر عواقب تلك السياسة في شنغهاي. ففي مارس 1927، احتشد عمال شنغهاي خلف الحزب الشيوعي الصيني. ونظموا إضرابا عاما ثوريا، أدى إلى طرد أمير الحرب المحلي ووضع السلطة في أيدي العمال المسلحين. كان بإمكان الحزب الشيوعي الصيني استغلال هذا النصر الهائل لإلهام العمال في المدن الصينية الأخرى للسير على خطاه، وهو الأمر الذي كان من الممكن أن يُتوج بثورة اشتراكية في جميع أنحاء البلاد.

لكن الكومنترن أصر على أن يأمر الحزب الشيوعي العمال بوضع سلاحهم والخضوع لقوات تشيانغ كاي شيك، لأنه من وجهة نظرهم، كانت الثورة الصينية جاهزة لمرحلتها «الديمقراطية» فحسب. وهكذا فتح الحزب الشيوعي الصيني أبواب شنغهاي أمام تشيانغ، الذي، اتبع غريزته الطبقية فشن مذبحة ضد العمال والشيوعيين العزل، وأغرق الثورة في الدماء.

كانت النتيجة واضحة: لقد أدت تعليمات الكومنترن إلى هزيمة نكراء للحزب الشيوعي الصيني والطبقة العاملة الصينية. ومع ذلك فقد ألقت بيروقراطية موسكو اللوم كله على زعيم الحزب آنذاك، تشن دوكسيو، الذي لم يعمل سوى على اتباع أوامر الكومنترن حتى كارثة شنغهاي، عوض الاعتراف بنزاهة بمسؤوليتهم الجسيمة عن أخطاء الحزب الشيوعي الصيني.

ثم ارتكبت أخطاء جديدة لحماية هيبة بيروقراطية موسكو، مثل المغامرة الكارثية لـ«سوفييت كانتون». وقد أدت تلك السلسلة من التذبذبات والهزائم بدورها إلى تسريع تبقرط الحزب.

أدت تلك الأحداث إلى دفع المزيد أعضاء الحزب إلى التشكيك في التوجيهات والأوامر التي كانوا يتلقونها من موسكو. حدث هذا بين عدد من المجموعات بشكل مستقل عن بعضها البعض. كان بعضهم أعضاء في الحزب الشيوعي الصيني يدرسون في روسيا، ويجيدون التحدث بالروسية، وتمكنوا من الوصول إلى كتابات تروتسكي بمفردهم.

وكان بعضهم من قادة الحزب الشيوعي الصيني الأكبر سنا الذين ألقت موسكو باللوم عليهم في الهزائم، مثل مؤسس الحزب تشين دوكسيو وبنغ شو تشي. لقد فكروا بجدية في دروس الهزائم وتبنوا موقف تروتسكي. ونتيجة لذلك تعرضوا للطرد من الحزب الشيوعي الصيني سنة 1929.

كان آخرون من البرجوازيين الصغار الذين كرهوا البيروقراطية الستالينية لأسبابهم الخاصة، ولذلك أبدوا اهتمامهم بالمعارضة اليسارية لتروتسكي.

شكلت تلك المجموعات المتفرقة تيارات مستقلة داخل الحزب الشيوعي الصيني، واندمجت لاحقا لتشكل قوى التروتسكية الصينية.

مسألة القيادة

تمتعت تلك الشرائح الأولى من أعضاء الحزب الشيوعي الصيني المتعاطفين مع تروتسكي بإمكانيات هائلة. كان بعضهم، ومنهم تشن دوكسيو، قادة مؤسسين للحزب، وكانوا يتمتعون بسلطة هائلة بين قواعد الحزب. بينما آخرون، مثل وانغ فانشي، فكانوا أعضاء أصغر سنا درسوا في موسكو ويتقنون اللغة الروسية، مما يعني أنه كان بإمكانهم تكوين صلة مباشرة بالمعارضة اليسارية في روسيا وحول العالم.

لو أنهم تمكنوا من بناء حزب منظم في الوقت المناسب، لكانت هناك فرص عديدة منذ أواخر عشرينيات القرن العشرين فصاعدا لكسب أعضاء جدد من صفوف الحزب الشيوعي الصيني، الذي كان يمر بأزمة عميقة. كان من شأن تلك الخطوة أن تشكل خطوة مهمة نحو إعادة بناء الماركسية كقوة بين صفوف البروليتاريا الصينية.

لكن ذلك لم يتحقق للأسف. فرغم انحيازهم إلى تروتسكي، لم يكونوا قد تملكوا النظرية البلشفية وأساليبها بأنفسهم. وقد كان ذلك تحديدا هو ما كان مطلوبا لتجاوز فترة الردة الرجعية العنيفة التي كانت الصين تدخلها، حيث كان كل من حزب الكومينتانغ والحزب الشيوعي الصيني عدوين شرسين لقواهم الصغيرة.

أدت هزيمة الثورة إلى ظهور أمزجة كلبية للغاية بين بعض الشرائح. انعكس ذلك في ظهور أساليب وسلوكيات عصبوية لدى العديد من المنتمين إلى المعارضة اليسارية. لم يقتصر هذا على الصين فحسب، بل شمل قطاعات عديدة من المعارضة اليسارية، حيث توجب على تروتسكي التدخل شخصيا لتصحيح تلك الأخطاء.

وهكذا بدأ التروتسكيون الصينيون بكونهم أربع مجموعات عصبوية صغيرة تصارعت فيما بينها لأكثر من سنة ونصف. تراوحت أسباب الخلافات بين مسائل سياسية ثانوية ونزاعات شخصية

محضة.

كان المطلوب وجود قوة سياسية موحدة قوية: قيادة تتمتع بفهم واضح للوضع وسلطة كافية لجمع أفضل العناصر على أساس مبدئي. لكن للأسف، كان هذا العامل تحديدا هو ما ينقص.

كان تشن دوكسيو الشخص الوحيد القادر على لعب ذلك الدور، لكن العديد من التروتسكيين الشباب رفضوا العمل معه بسبب التزامه بالخط الكارثي للكومنترن حتى مذبحة شنغهاي، رغم تحفظاته. وللأسف كان حتى هو يفتقر إلى فهم عميق للنظرية الماركسية، مما أدى في كثير من الأحيان إلى تأخره عن الآخرين، وكان يعجز عن توفير الوضوح اللازم للقيادة.

وأخيرا، في 08 يناير 1931، كتب تروتسكي شخصيا رسالة إلى جميع المجموعات الرئيسية. كان قد توصل، بناء على بعض الاتصالات التي تلقاها من جميع الأطراف، إلى أنه لا يوجد سبب لاستمرار الانقسام بين تلك المجموعات، وحثها على الاندماج في مجموعة واحدة.

من وجهة نظر تروتسكي، كانت مجموعات التروتسكيين الصينيين المختلفة، وكما هو الحال مع العديد من قطاعات المعارضة اليسارية الأممية الأخرى، مكونة في الغالب من عناصر ثورية مخلصة، لكنها كانت خام من الناحية السياسية. كان مستعدا لتوجيههم بصبر، على الرغم من وجود العديد من الاختلافات فيما بينهم، طالما أنهم جميعا يرسمون خطا فاصلا ضد أي عناصر غير مبدئية. وهكذا اختتم رسالته قائلا: «إن ضم مجموعات بلا مبادئ إلى المعارضة الأممية يعني تسميم الذات»[6].

ما لم يكن بمستطاع تروتسكي أن يراه هو وجود عدد لا بأس به من العناصر عديمة المبادئ بين معظم تلك المجموعات. كان هناك بالفعل أشخاص جادون وشجعان، لكنهم كانوا مختلطين بعناصر برجوازية صغيرة كانت أولوياتها الرئيسية هي تولي مناصب قيادية لمصالحها الشخصية.

ما قصده تروتسكي بالوحدة هو أن يتحد التروتسكيون الصينيون المخلصون، الذين توحدت منظوراتهم وبرامجهم وسياساتهم وأساليبهم بشكل عام، في منظمة واحدة. لكن عندما وصلت رسالة تروتسكي إلى الصين، تم تفسيرها بمصطلحات تنظيمية شكلية بحتة، أي أن أي شخص يعلن تضامنه مع تروتسكي من الصين، بغض النظر عن أفكاره أو دوافعه السياسية، يجب أن يكون جزءا من تلك المنظمة.

لم تكن النتيجة هي الوحدة المبدئية التي كان يطمح إليها تروتسكي، بل سيرورة اندماج فوضوية بلا مبادئ استمرت مرة أخرى لمدة نصف عام، غارقة في المشاحنات حول تمثيلية كل مجموعة في اللجنة المركزية.

في الأول من ماي عام 1931، انعقد أخيرا مؤتمر تأسيسي للمعارضة اليسارية الصينية، والذي أسس الرابطة الشيوعية الصينية، بلجنة تنفيذية برئاسة تشن دوكسيو. لكن وبعد فترة وجيزة، قرر عضو غاضب لعدم انتخابه في اللجنة المركزية، يدعى ما يوفو، خيانة قيادة المنظمة بأكملها عبر التبليغ عنهم إلى الكومينتانغ.

وهكذا، فبعد وقت قصير من مؤتمر الوحدة

جنود يابانيون يدخلون بوابة تشونغهوا في نانجينغ، ديسمبر 1937.

تشيانغ كاي شيك وماو تسي تونغ، سبتمبر 1945.

الـذي حققـوه بشـق الأنفـس، تـم اعتقـال القيـادة المركزيـة بأكملهـا، باسـتثناء تشـن دوكسـيو وبنـغ شـو تشي، وسـجنهم. وفي النهايـة، اعتقـل حـزب الكومينتانـغ تشـن وبنـغ في مناسـبة أخـرى في العـام المـوالي. وهكـذا حُـرم التروتسـكيون الصينيـون منـذ البدايـة مـن قيـادة راسـخة.

صعوبات موضوعية

على الرغـم مـن اسـتئصال قيادتهـم، ظلـت هنـاك مجموعـات صـغيرة مـن الأعضـاء العـاديين، بالإضافـة إلى التروتـسكي الجنـوب أفريقـي فرانـك غلاس، الذيـن عملـوا بجـد لإبقـاء جـذوة التروتسـكية متقـدة، معظمهـم في شـنغهاي.

بـدا الوضـع في البدايـة ميؤوسـا منـه. نظـام الكومينتانـغ، الـذي صـار آنـذاك ديكتاتوريـة عسـكرية تسـعى بنشـاط لشـن حـرب أهليـة «ضـد الشـيوعية»، لـم يكـن يـرى أي فـرق بين التروتسـكيين وبين الحـزب الشـيوعي الصـيني السـتاليني. في السـنوات التي تلـت 1927، كان تشـيانغ كاي شـيك مهووسـا بشـكل أسـاسي باقـتلاع مـا أسـماه «قطـاع الطـرق الشـيوعيين» مـن الـصين، حتى مـع غـزو اليابـان الإمبراطوريـة للـبلاد، واسـتيلائها على منشـوريا سـنة 1931.

في دجـنبر 1936، ألقـي القبـض على تشـيانغ كاي شـيك مـن قبـل أحـد جنرالاتـه وأطلـق سراحـه بشرط أن يوقـع على اتفـاق وقـف إطلاق النـار مـع الحـزب الشـيوعي الصـيني وأن يعمـل معـه لدحـر اليابـان. وافـق تشـيانغ على مضـض بشرط أن يعلـق الحـزب الشـيوعي الصـيني الصراع الطبقـي، ويوقـف كل الدعايـة الشـيوعية، ويحـل جمهوريـة ينـان السـوفياتية (حكومـة المنطقـة الخاضعـة لسـيطرة الحـزب الشـيوعي الصـيني)، ويدمـج الجيـش الأحمـر في الجيـش الـوطني الرسـمي. قبـل الحـزب الشـيوعي الصـيني تلـك الشروط، وتأسـس رسـميا مـا يسـمى بـ»الجبهـة المتحـدة الثانيـة» في صيـف 1937.

تضمـن تنـازل تشـيانغ للتعـاون مـع الحـزب الشـيوعي الصـيني إطلاق سراح جميـع السـجناء السياسـيين في سـجون الكومينتانـغ. ولحسـن الحـظ، أفـاد هـذا التروتسـكيين الصينـيين، حيـث أُطلـق سراح قـادة بارزيـن مثـل تشـن دوكسـيو، وتشـنغ تشـاولين، ووانغ فـانشي، وبنـغ شـو تشي بموجـب هـذه الشروط.

بقـوة صـغيرة عديمـة الـخبرة ومـوارد محـدودة، خـاض التروتسـكيون حربـا على ثلاث جبهـات: ضـد الكومينتانـغ، وضـد الحـزب الشـيوعي الصـيني، وضـد اليابانـيين؛ وجميعهـم اعـتبروا التروتسـكية تهديـدا مميتـا.

لـم يكـن حـزب الكومينتانـغ واليابانيـون، بالطبـع، يـرون أي فـرق بين الحـزب الشـيوعي الصـيني وبين التروتسـكيين، وقمعـوا كليهمـا بوحشـية. في غضـون ذلـك، مـع نهايـة الثلاثينيـات، شـن الحـزب الشـيوعي الصـيني، تماشـيا مـع حملـة سـتالين للقضـاء على التروتسـكية عالميـا، حـملات تصفيـة حقـودة ضـد التروتسـكيين أينمـا كانـوا. مـن الصعـب وصـف مـدى تعقيـد وصعوبـة الوضـع الـذي كان عليه الماركسـيون الحقيقيـون في الـصين آنـذاك.

على الرغـم مـن كل الصعـاب، أسـس التروتسـكيون قيـادة وطنيـة مؤقتـة للرابطـة الشـيوعية في شـنغهاي بين عامـي 1933 و1934، ثـم تمكنـت القـوات المتفرقـة في هونـغ كونـغ وشـاندونغ وقوانـغشي مـن إعـادة التواصـل مـع ذلـك المركـز.

ومنـذ ذلـك الـحين اتجهـت الرابطـة الشـيوعية نحـو عمـال المـدن والـطلاب الذيـن كانـوا منفصـلين إلى حـد كـبير عـن الحـزب الشـيوعي الصـيني، الـذي نقـل قاعدتـه إلى الأريـاف نحـو الـفلاحين. ترجمـوا ونشروا أعمـال تروتـسكي باللغـة الصينيـة، وأصـدروا عـددا مـن الصحـف غير القانونيـة، مطبوعـة في مطابـع صمموهـا وبنوهـا بأنفسـهم. إن نجاحهـم في تحقيـق تلـك الانتصـارات المهمـة يسـتحق كل التقديـر والاحترام.

الحرب

بـدء الغـزو اليابـاني الشـامل للـصين سـنة 1937 طـرح سـؤالا بالـغ الأهميـة أمـام التروتسـكيين الصينـيين: مـا الموقـف الـذي ينبغـي أن يتخـذوه مـن الحـرب؟

صحيـح أن تشـيانغ كاي شـيك كان سـفاحا للبروليتاريـا الصينيـة ورجعيـا متطرفـا. إلا أن طبيعـة غـزو اليابـان للـصين كانـت حربـا بين قـوة إمبرياليـة وبين أمـة مضطهـدة تناضـل مـن أجـل تحررهـا القومـي.

وبالفعـل فقـد أثـارت وحشـية الغـزاة اليابانـيين روح مقاومـة اسـتثنائية بين العمـال والـفلاحين الصينـيين. وقـد تـجلى ذلـك بـشكل خـاص بعـد مذبحـة نانجينغ في دجـنبر 1937، حيـث ارتكبـت القـوات اليابانيـة واحـدة مـن أسـوأ جرائـم الحـرب في التاريـخ. فقـد تـم نهـب مئـات الآلاف مـن المدنـيين واغتصابهـم وقتلهـم.

قـدم فرانـك غلاس تقريـرا مريعـا عـن الحيـاة في ظـل الاحـتلال اليابـاني سـنة 1939، حيـث قـال:

«في المناطـق الخاضعـة للسـيطرة اليابانيـة، عـادة مـا يقتـل اليابانيـون أي صـيني يـعثر عليـه متورطـا فيمـا يسـمى العمـل المعـادي لليابـان، والـذي توجـه إليـه اتهامـات عديـدة، مثـل عـدم تـوفير سـيجارة للجنـدي اليابـاني، أو الانحنـاء بطريقـة غير لائقـة أمـام الحـراس، أو حيـازة صحيفـة تابعـة للكومينتانـغ. في تلـك المناطـق، لا يوجـه الإرهـاب اليابـاني ضـد الثـوار فحسـب، بـل ضـد جميـع السـكان. تـم إحـراق قـرى لا تـحصى لأن اليابانـيين اعـتبروا أنهـا كانـت تسـاعد قـوات حـرب العصابـات، بينمـا أطلقـوا النـار على السـكان الهـاربين»[7].

كانـت الجمـاهير الصينيـة تتأجـج غضبـا ضـد الغـزاة الإمبرياليـين. لكـن رغـم أن جيـش الـفلاحين التابـع للحـزب الشـيوعي الصـيني كان يقـارب 100 ألـف جنـدي في ذلـك الوقـت، فإنـه كان ضعيـف التسـليح، ومقـتصرا في الغالـب على منطقـة صـغيرة ونائيـة نسـبيا في نواحـي ينـان في مقاطعـة شـنشي. والحقيقة، شـئنا أم أبينـا، هـي أن أكبر قـوة كانـت تقاتـل ضـد ذلـك الغـزو والتي يمكـن للجمـاهير اللجـوء إليهـا هـي حـزب الكومينتانـغ.

شكل ذلـك مشكلـة بالغـة التعقيـد للتروتسـكيين

الصينيين، في وقت لم يكن لديهم سوى حوالي 200 شخص منتشرين في أنحاء الصين. كيف يمكنهم التموقع تجاه حزب الكومينتانغ والحزب الشيوعي الصيني، دون الرضوخ لضغوط الانتهازية أو الانعزال عن الطبقة العاملة؟ عند تلك النقطة، قدم تروتسكي إرشادات بالغة الأهمية حول كيفية معالجة تلك المسألة.

جبهة متحدة مبدئية

بداية من الواضح تماما أن الشيوعيين يجب أن ينحازوا إلى جماهير الأمة المضطهَدة في نضالها ضد الإمبريالية. لكن آنذاك لم تكن الجماهير الصينية قد طورت بعد أجهزة سلطتها الخاصة، وكان ثوريو الرابطة الشيوعية الصينية بعيدين كل البعد عن الحجم الكافي لإحداث تأثير على الوضع بمفردهم. كان لا بد من بناء القوى التروتسكية الصغيرة من خلال التواصل مع ذلك المزاج التقدمي للتحرر من الإمبريالية السائد بين الجماهير.

كانت الطريقة الوحيدة للقيام بذلك في هذه الحالة هي أن يقدم التروتسكيون أنفسهم كجزء من جبهة عسكرية متحدة مبدئية مع حزب الكومينتانغ والحزب الشيوعي الصيني، مع الحفاظ على استقلالهم الطبقي.

كان هذا تحديدا هو ما دعا إليه تروتسكي كسياسة للصين عام 1937. بل ذهب إلى حد دعوة الثوار إلى الانضمام إلى النضال العسكري ضد اليابان، حتى لو كان ذلك يعني الانضمام إلى جيوش الكومينتانغ.

هكذا حلل تروتسكي الوضع في رسالة إلى دييغو ريفيرا في ذلك العام:

«تشيانغ كاي شيك هو جلاد العمال والفلاحين الصينيين. لكنه اليوم مجبر، رغما عنه، على خوض الصراع ضد اليابان من أجل ما تبقى من استقلال الصين. قد يخون مجددا غدا. هذا ممكن. إنه محتمل. بل حتمي. لكنه اليوم يقاتل. وحدهم الجبناء، أو الأوغاد، أو البلهاء تماما من يمكنهم رفض المشاركة في هذا القتال».

[...]

«إن المشاركة الفاعلة والواعية في الحرب لا تعني «خدمة تشيانغ كاي شيك»، بل خدمة استقلال بلد مستعمر **رغما عن** تشانغ كاي تشك. والكلمات الموجهة ضد الكومينتانغ هي وسيلة تثقيف الجماهير للإطاحة بتشيانغ كاي شيك. إن المشاركة في النضال **العسكري** تحت قيادة تشيانغ كاي شيك، لأنه للأسف هو من يتولى القيادة في حرب الاستقلال، والتحضير **سياسيا** للإطاحة بتشيانغ كاي شيك... هي السياسة الثورية الوحيدة»[8]. (التشديد من تروتسكي).

تميز هذا التكتيك اختلافا جوهريا عن «الجبهات الشعبية» الستالينية (أي التحالف بين الطبقات)، أو ما أسماه ماو «الجبهة المتحدة الثانية» مع الكومينتانغ. سعى ماو والحزب الشيوعي الصيني تحديدا إلى تسليم جميع أراضيهم لحزب الكومينتانغ مع قبول تشيانغ قائدا لهم، والتخلي عن استقلالهم الطبقي داخل معسكر «وطني» عام بقيادة حزب الكومينتانغ البرجوازي.

في المقابل، كان من شأن تكتيك الجبهة المتحدة الحقيقي أن يجعل من الحزب الثوري كتلة داخل حركة النضال الوطني، دون التخلي عن استقلاله السياسي والتنظيمي، وخاصة مطالبه الاجتماعية. وعوض تعزيز الأوهام حول قدرة حزب الكومينتانغ على «محاربة الإمبريالية»، كان ينبغي أن يوجه سياسته نحو فضح عجز الكومينتانغ عن إدارة الحرب. كان عليه دائما الاحتفاظ بخيار الإطاحة بالعناصر البرجوازية التي كانت على رأس نضال التحرير الوطني، **حتى قبل انتصار الحرب**.

وكما أوضح تروتسكي فإنه: «يجب أن نكسب النفوذ والهيبة في النضال **العسكري** ضد الغزو الأجنبي، وفي النضال **السياسي** ضد نقاط الضعف والنقائص والخيانة الداخلية. وعند نقطة معينة، لا يمكننا تحديدها مسبقا، يمكن، بل يجب، أن تتحول هذه المعارضة السياسية إلى صراع مسلح، لأن الحرب الأهلية، كالحرب عموما، ليست سوى استمرار للنضال السياسي. ومع ذلك فإنه من الضروري معرفة متى وكيف نحول المعارضة السياسية إلى تمرد مسلح»[9]. (خط التشديد من تروتسكي).

اعتبرتروتسكي أنه بتطبيق صحيح لتكتيك الجبهة المتحدة على الظروف السائدة خلال الحرب، وخاصة مزاج العمال والشباب، سيتمكن التروتسكيون الصينيون من الخروج من عزلتهم، مما يسمح لهم بكسب عناصر من شريحة أوسع، وإيجاد طريق نحو الطبقة العاملة التي كانت تفتقر إلى أي قيادة ثورية.

انقسامات بين التروتسكيين

عند اندلاع الحرب، لم يكن التروتسكيون الصينيون، للأسف، متفقين بشأن هذه المسألة المحورية.

في قيادة الرابطة الشيوعية، رفض تشنغ تشاولين دعم حرب المقاومة لأنه اعتبرها بمثابة «تعاون طبقي» مع حزب الكومينتانغ. وفي مقال بعنوان «تحت راية الانهزامية الثورية»، جادل تشنغ بأنه في عصر الرأسمالية الإمبريالية، لم تعد نضالات التحرر الوطني تحمل أي محتوى تقدمي. لذلك جادل بأنه على الماركسيين دعم هزيمة تشيانغ في الحرب ضد اليابان.

تبنت الأغلبية المتمركزة في مركز الحزب في شنغهاي، موقف تأييد المقاومة، لكنها انتقدت أيضا قيادة الكومينتانغ بطريقة جعلتها تبدو سلبية تجاه المجهود الحربي.

وكما قال تشن دوكسيو لتروتسكي في رسالة لاحقة فإنه:

«في نظر الجماهير، لم يكن ما رأوه من

«التروتسكيين» مقاومة لليابان، بل صفحة تلو الأخرى في كل عدد من جريدتهم الرسمية مليئة بمقالات تهاجم الحزب الشيوعي الصيني والكومينتانغ وتدينهما. ونتيجة لذلك، لاقت دعاية الستالينيين عن «الخونة التروتسكيين» صدى بين جميع شرائح المجتمع، لدرجة أنه حتى المتعاطفين معنا لم يتمكنوا من فهم ما الذي يعارضه «التروتسكيون» بشكل رئيسي في الوقت الحالي»[10].

كان على التروتسكيين أن يدعموا بكل قوتهم إجراءات جريئة لتحريض العمال على المقاومة الثورية ضد اليابان، مثل تنظيم ميليشيات عمالية، مع انتقاد حزب الكومينتانغ بطريقة ماهرة، بطريقة لا تظهرهم خارج نطاق المقاومة. كما كان عليهم مطالبة الكومينتانغ بتوفير الأسلحة والتدريب للعمال في المدن كأفضل سبيل لوقف الإمبريالية اليابانية. بهذه الطريقة ستنظر الجماهير إلى التروتسكيين كمقاتلين مخلصين من أجل التحرر، ويمكن استخدام تلك السلطة لتضخيم دعوتهم للجماهير لاتباع نهج أكثر استقلالية طبقية وثورية تجاه الحرب.

بالتأكيد كان هناك رفاق أفراد شاركوا في النضال العسكري، إما بالانضمام إلى فصائل حرب العصابات التي نظمها الكومينتانغ والحزب الشيوعي الصيني، أو بتكوين فصائل حرب عصابات خاصة بهم. كانت شاندونغ إحدى البؤر الساخنة لحرب العصابات التي قادها التروتسكيون ضد اليابان، لكن تلك الفصائل كانت تميل إلى الانفصال إلى حد كبير عن مركز الحزب، وكثيرا ما كانت تباد على يد حزب الكومينتانغ أو الحزب الشيوعي الصيني. والأهم من ذلك هو أن محاولات حرب العصابات تلك كانت تميل إلى الانفصال عن الطبقة العاملة في المدن، مما أدى بدوره إلى عزل الثوار.

أقلية ضئيلة فقط، من بينهم تشن دوكسيو، من رأت بشكل استباقي ضرورة دعم حرب المقاومة، أو على الأقل حاولت القيام بذلك.

ومع ذلك، فبينما كان تشن محقا في مجادلته بضرورة المشاركة الفعالة في المجهود الحربي، إلا أنه لم يتقن تماما المنهج الماركسي، وكان يمر بمرحلة من الإحباط في ذلك الوقت. أثناء وجوده في السجن، تسببت أخبار محاكمات موسكو في وقوعه في حيرة بشأن طبيعة الاتحاد السوفياتي. لذلك جدد تركيزه على مسألة «الديمقراطية» بشكل مجرد، على غرار الموقف الذي كان يتبناه قبل أن يتحول إلى الماركسية. أثر ذلك على المضمون السياسي لمقترح تشن، الذي بلغ حد حصر برنامج التروتسكيين في حدود النضالات الديمقراطية والوطنية.

وازدادت حالة الإحباط لدى تشن عندما أعلن سنة 1937 أنه «لم يعد ينتمي إلى أي حزب أو منظمة»، في محاولة لتشكيل جبهة بين التروتسكيين والأحزاب الليبرالية الديمقراطية الصغيرة. ثم انفصل تماما عن التروتسكيين الصينيين بحلول نهاية ثلاثينيات القرن العشرين. وعاش في فقر وانقطع عن العمل السياسي حتى وفاته سنة 1942، متأثرا بارتفاع ضغط الدم وأمراض القلب.

انهزامية ثورية؟

تفاقم ذلك الانقسام حول الموقف من الحرب مع اليابان. وإلى جانب غياب العمل التنظيمي الموحد الفعلي، تسبب ذلك في حدوث صدع هائل داخل الرابطة الشيوعية. في الواقع، بدأ بعض أبرز التروتسكيين الصينيين في تعزيز مواقفهم العصبوية تجاه الحرب، وخاصة بعد إعلان الولايات المتحدة الحرب على اليابان في دجنبر 1941.

واعتقدت أقلية كبيرة، بقيادة وانغ فانشي، أنه بما أن الإمبريالية الأمريكية تدعم الصين ضد اليابان، فقد تغيرت طبيعة الحرب برمتها. جادل وانغ بأن الصين لم تعد أمة مضطهَدة تقاتل من أجل تحررها، بل أصبحت عميلا للولايات المتحدة في الصراع بين الإمبرياليات مع اليابان. واستنتج أن موقف تشيانغ كاي شيك أشبه بموقف القيصر الروسي خلال الحرب العالمية الأولى، مما يعني أنه لم يعد في إمكان الثوار دعم أي طرف في الحرب. اعتبر تشنغ تشاولين أن هذا الموقف هو نفسه جوهريا الموقف الذي تبناه منذ الغزو الياباني الشامل للصين سنة 1937، وبالتالي انضم إلى جناح وانغ.

لكن الجماهير الصينية أدركت بوضوح في الحرب الصينية اليابانية، حتى عندما ساندتها الولايات المتحدة، أنها تخوض معركة وجودية كأمة مضطهَدة لتجنب أن تصبح مستعمرة يابانية صريحة. ولم يغير خوض الولايات المتحدة صراعها الإمبريالي الخاص مع اليابان من طبيعة نضال الصينيين من أجل الاستقلال ضد الاستعمار. وحتى بين الفئات المتقدمة من الطبقة العاملة، التي كانت لديها بالفعل شكوك تجاه تشيانغ كاي شيك، بقيت هزيمة الإمبريالية اليابانية على رأس أولوياتها.

حاول وانغ فانشي تبني موقف أقل فضاضة بقليل، لكنه لا يقل تجريدا، من موقف تشنغ تشاولين، والذي أطلق عليه «الانتصارية الثورية».

هكذا شرح فكرته بناء على تفسيره لمقال تروتسكي

في اتجاه عقارب الساعة من أسفل اليسار:

| وانغ فانشي وزوجته ما يو.

| تشن دوشيو.

| تشن دوشيو (يسار) وبنج شو تشي (يمين) بعد اعتقالهما عام 1932.

عام 1937:

«انبثقت سياسة النصر الثوري التي انتهجها تروتسكي والتروتسكيون الصينيون من كون الحرب الصينية اليابانية جزءا من تداعيات هزيمة الثورة الصينية 1925- 1927. واستندت هذه السياسة إلى فرضية مفادها أن نظام الكومينتانغ الفاسد والمنحط والمتراجع باستمرار لا يمكنه هزيمة المعتدين اليابانيين هزيمة حقيقية، وأن الطريقة الأكثر موثوقية وثباتا لهزيمة الغزاة اليابانيين هي تنظيم العمال والفلاحين تحت رايتهم السياسية الخاصة»[11].

على اليسار: عدد أبريل 1937 من مجلة «النضال»، التي أصدرتها رابطة الشيوعيين الصينيين. يتضمن المقال الرئيسي خطابًا لليون تروتسكي حول الثورة الإسبانية.

على اليمين: نسخة من صحيفة «إيسكرا» عام 1936، وهي الجريدة الرسمية لفصيل المعارضة اليسارية داخل الحزب الشيوعي الصيني، وكان محررها الرئيسي آنذاك تشن دوشيو. من بين المقالات الستة المذكورة على الغلاف، كُتبت أربعة منها بواسطة تروتسكي.

وادعى وانغ أنه على التروتسكيين أن يقولوا للجماهير الصينية: إن حزب الكومينتانغ فاسد للغاية وخانع للغاية بحيث لا يستطيع هزيمة اليابانيين. ومن أجل تحقيق النصر، يجب على العمال والفلاحين تنظيم أنفسهم وإسقاط حزب الكومينتانغ أولا.

بدا كل ذلك صحيحا في المجرد. في الواقع لو أن التروتسكيون كانوا قد كسبوا بالفعل طليعة الطبقة العاملة، لكان ذلك هو الموقف الصحيح. لكن المشكلة كانت هي أنه رغم كون الهدف العام لتلك السياسة صحيحا، فإنه لم يكن هناك بديل عملي لـ«الجبهة المتحدة» بين الكومينتانغ والحزب الشيوعي الصيني، باعتبارها قوة مقاومة رائدة، مهما كان الكومينتانغ غير كفؤ ومكروها.

وبصفتهم قوة مشكلة من بضع مئات في بلد يضم مئات الملايين من الناس، لم يكن في مقدور التروتسكيين الصينيين أن يكونوا قيادة بديلة موثوقة في نظر الجماهير. إن إخبار الجماهير بأن الشرط الأساسي لهزيمة اليابانيين هو الإطاحة بالكومينتانغ، في حين لم يكن هناك بديل جماهيري يمكنه أن يشكل بديلا لتحالف الكومينتانغ والحزب الشيوعي الصيني، لا يمكن أن يبدو في أعين الجماهير إلا دعوة لتأجيل المجهود الحربي ريثما يظهر حزب ثوري جماهيري فاعل، كما لو أن اليابان ستنتظر بلطف حدوث ذلك. لقد كان لا بد من محاربة اليابان **فورا**.

ورغم أن من دافعوا عن تلك المواقف كانوا أقلية داخل الحركة التروتسكية، فإنهم كانوا مؤثرين للغاية ونشروا مقالات بهذا المعنى في بعض المجلات النظرية الرسمية للتروتسكيين الصينيين. وما يزال الحزب الشيوعي الصيني يستخدم تلك المقالات حتى يومنا هذا لاتهام التروتسكيين بالخيانة.

قوى متفرقة

على الرغم من أن الأغلبية المحيطة ببنغ شو تشي لم تتفق مع تلك المواقف، إلا أنها كانت مشتتة في جميع أنحاء البلاد. لذلك اضطروا إلى التحرك بشكل مستقل، بقوى أصغر حجما.

في شنغهاي، حيث كان المقر الوطني، أدت موجات الاعتقالات ونزوح أعداد كبيرة من العمال الفارين من المدينة هربا من اليابانيين إلى تعطيل فروع الحركة. في هونغ كونغ، تغلغل التروتسكيون داخل المصانع وكسبوا تدريجيا عمالا أفرادا. ومع ذلك فقد كانوا ما يزالون حفنة صغيرة بحلول الوقت الذي احتل فيه اليابانيون هونغ كونغ، واضطروا جميعا إلى الفرار إلى أماكن أخرى.

كانت تشونغشان وونتشو المكانين الأكثر نجاحا للعمل. وفي كلتا الحالتين جاء النجاح من تركيزهم على الشباب. في تشونغشان، شكل التروتسكيون جبهة شبابية أطلقوا عليها اسم: «فيلق خدمة شباب زمن الحرب»، والتي نظمت طلاب المدارس للسفر إلى القرى للتحريض لصالح المجهود الحربي، بالإضافة إلى مجموعات دراسة تضمنت أدبيات تروتسكية. بدأ التروتسكيون في وونتشو، بمجموعة صغيرة من رفاقهم من معلمي المدارس، بتجنيد طلابهم من خلال مجموعات الدراسة، وبدأوا في نشر ت في العديد من المدارس الإعدادية.

لكن وللأسف، حتى في الأماكن التي كانوا يحققون فيها تقدما، كان التروتسكيون الصينيون غالبا ما يعملون كقوى ضئيلة معزولة. غالبا ما كانوا يعانون من قمع شديد من قبل حزب الكومينتانغ واليابانيين، مما أدى إلى تحطيم العمل الذي بنوه. وقد تعاون الستالينيون بنشاط في ذلك القمع، وكثيرا ما كانوا يبلغون معلومات عن التروتسكيين ونشاطهم إلى السلطات.

الخطأ الجسيم لدى كلا الفصيلين التروتسكيين كان في تبنّي تحليل ليون تروتسكي بشكل أحادي، دون تطبيقه بصورة ملموسة على الظروف التي كانت قائمة في الصين وعلى المستوى الدولي بعد الحرب العالمية الثانية الثانية.

كانت تلك هي الظروف التي خاضت في ظلها الأغلبية المحيطة ببنغ شو تشي والأقلية المحيطة بوانغ فانشي صراعا فصائليًا حادا سنة 1942. أدى ذلك إلى حدوث انشقاق أعلنت فيه أغلبية بنغ أن الأقلية «غادرت المنظمة» بنشرها لصحفها الخاصة. وهكذا انقسمت قوى التروتسكية الصينية

مـرة أخـرى، ولـم تتوحـد أبـدا بعـد ذلـك.

انتصار ماو

بعـد هزيمـة اليابـان عـام 1945، انفتحـت فـرص وتحديـات أخـرى. لكـن التروتسـكيين الصينـيين ارتكبـوا للأسـف عـددا مـن الأخطـاء الجسـيمة في منظورهـم خلال تلـك الـفترة. ففـي الأسـاس، لـم يفهمـوا كيفيـة قيـاس موازيـن القـوى بـشكل ملمـوس، وخاصـة بعـد الحـرب.

بحلـول الوقـت الـذي اسـتؤنف فيـه القتـال بين جيشي الكومينتانـغ والحـزب الشـيوعي الصـيني في صيـف عام 1946، كانـت الحركـة التروتسـكية الصينيـة منقسـمة بحكـم الأمـر الواقـع إلى منظمـتين منفصلـتين لكل منهـا منشـوراتها الخاصـة، لكـن كلاهمـا اسـتمرتا تدعيـان الـولاء للأمميـة الرابعـة التي أسسـها تروتسـكي.

اختلـف الفصيـلان بشـدة حـول مجموعـة مـن القضايا السياسـية والتكتيكيـة، حيـث وصـف كل منهمـا الآخـر بأنـه «انتهـازي» و«عصبـوي»، ومـا إلى ذلـك. ومـع ذلـك فقـد اتفقـا في نقطـة مهمـة واحـدة، حيـث توقـع كلاهمـا هزيمـة الحـزب الشـيوعي الصـيني على يـد الكومينتانـغ. بـل قـد تعـاملا مـع ذلـك التوقـع على أنـه أمـر حتمي.

سـنة 1947 كتـب بنـغ شـوزي، زعيـم فصيـل الأغلبيـة: «لقـد أظهرنـا تعاطفـا عميقـا مـع الحـرب التي شـنتها جيـوش الـفلاحين السـتالينية، مـع أننـا لـم نتوقـف عـن الإشـارة إلى أن هزيمتهـم كانـت، ومـا تـزال، وسـتظل بسـبب السياسـات الخيانيـة للحـزب والكرمـلين»[12].

وفي رد نُشر سـنة 1948، كتـب وانـغ فـانشي، أحـد أعضـاء الأقليـة قـائلا: «بصفتهـا حربـا فلاحيـة، تتسـم الحـرب الأهليـة بطابـع تقدمـي مـن جانـب الـفلاحين؛ لكـن وبصفتهـا حربـا فلاحيـة فحسـب، فإنهـا تفتقـر إلى أي منظـور، بـل محكـوم عليهـا بالفشـل بسـبب قيادتهـا السـتالينية»[13].

اسـتند منظورهـم إلى تفـسير ميكانـيكي لتحليـل تروتـسكي للـصين في عشرينيـات وثلاثينيـات القـرن المـاضي، ولنظريتـه عـن الثـورة الدائمـة.

أوضـح تروتـسكي مـرارا أن المهـام الديمقراطيـة للثـورة الصينيـة لا يمكـن للبرجوازيـة الصينيـة أن تنجزهـا، وبالتـالي لا يمكـن تحقيقهـا إلا مـن خلال ديكتاتوريـة البروليتاريـا بالتحالـف مـع الـفلاحين، كمـا هـو الحـال في روسـيا. وبالتـالي، فـإن الثـورة البرجوازيـة الديمقراطيـة في الـصين «سـتتطور» إلى ثـورة اشتراكيـة.

وعلاوة على ذلـك، فـإن تروتـسكي، اسـتنادا لدراسـته للهزيمـة الكارثيـة التي تعرضـت لهـا ثـورة 1925-1927 ودور الأمميـة الشـيوعية في ذلـك، أوضـح أيضـا أن الطبيعـة الانتهازيـة البنيويـة للسـتالينية وسياسـة التعـاون الطبقـي السـتالينية كانتـا وصفـة للهزيمـة: إمـا أن يستسـلم الحـزب الشـيوعي لتشـيانغ كاي شـيك، أو للبرجوازيـة بـشكل عـام.

كتب في عام 1932:

«في ظـل الظـروف الراهنـة، لا يمكـن لحـرب الـفلاحين وحدهـا، دون قيـادة مبـاشرة مـن الطليعـة البروليتاريـة، إلا أن تُسـلم السـلطة إلى زمـرة برجوازيـة جديـدة، أو حـزب كومينتانـغ «يسـاري» أو غيره، أو حـزب «ثالـث»، إلـخ، والـذي لـن يختلـف عمليـا إلا قلـيلا عـن حـزب كومينتانـغ تشـيانغ كاي شـيك»[14].

كان الخطـأ الجسـيم الـذي ارتكبـه كلا الفصيـلين التروتسـكيين هـو تبنيهمـا لتحليـل تروتـسكي بـشكل أحـادي، دون تطبيقـه عمليـا على الظـروف السـائدة في الـصين وعلى الصعيـد العالمـي بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة.

كان ذلـك يـعني أن التروتسـكيين الصينـيين اعتقـدوا بعنـاد أن مـاو لا يسـتطيع هزيمـة الكومينتانـغ، حتى مـع عبـور جيـش الـفلاحين التابـع للحـزب الشـيوعي الصـيني النهـر الأصفـر في يونيـو 1947، وشـنه حملـة واسـعة النطـاق ضـد جيـوش الكومينتانـغ المنحلـة منـذ أواخـر عـام 1948، وعبـوره نهـر اليانغـتسي في أبريـل 1949.

ومـن نهـر اليانغـتسي، اجتـاح جيـش مـاو (الـذي صـار يُسـمى جيـش التحريـر الشـعبي) بقيـة الـصين، بينمـا تخلـت قـوات الكومينتانـغ عـن مدنهـا واحـدة تلـو الأخـرى وتراجعـت إلى تايـوان. أعلـن مـاو تأسـيس جمهوريـة الـصين الشـعبية مـن ميـدان تيانانمـن في الأول مـن أكتوبـر 1949.

تيد غرانت

صـدم ذلـك التتابـع السريـع للأحـداث العالـم. وكما أوضح وانـغ فـانشي لاحقـا فإن: «سرعـة انهيـار الصرح [حـزب الكومينتانـغ] لـم يصـدم نظـام تشـيانغ كاي شـيك وسـادته في واشـنطن فحسـب، بـل فاجـأت سـتالين أيضـا. وإلى حـد مـا، لـم يكـن الأمـر متوقعـا حتى بالنسـبة لمـاو تسي تونـغ نفسـه. وغني عـن القـول، إننـا نحـن التروتسـكيون الصينيـون لـم نتوقعـه أيضـا»[15].

في وقـت لاحـق مـن عـام 1951، وفي محاولـة متأخـرة لفهـم مـا حـدث، كشـف بنـغ شـو تشي عـن النظـرة

ماو تسي تونغ يعلن تأسيس جمهورية الصين الشعبية، في 1 أكتوبر 1949.

الميكانيكية التي سادت بين جميع التروتسكيين الصينيين قبل الثورة حيث قال:

«لقد أكد التروتسكيون أن الإطاحة بنظام الكومينتانغ البرجوازي لا يمكن أن تتم إلا إذا نهضت الطبقة العاملة الحضرية وقادت جميع المضطهَدين والمستغَلين في البلاد، وخاصة جماهير الفلاحين، وخاضت نضالا دؤوبا، وأدت في النهاية إلى انتفاضة مسلحة. لم يكن من الممكن الإطاحة بالنظام البرجوازي بالاعتماد حصريا على القوات المسلحة الفلاحية، لأنه في ظل الظروف الاجتماعية الراهنة، يخضع الريف للمدينة، ولا يمكن للفلاحين لعب دور حاسم إلا بقيادة الطبقة العاملة. لكن الحقيقة التي تواجهنا الآن هي عكس ذلك تماما: حزب ستاليني يعتمد حصريا على القوات المسلحة الفلاحية هو الذي دمر النظام القديم واستولى على السلطة.

هذا التناقض الشديد بين «الوقائع» و«المفهوم التقليدي» أدى في المقام الأول إلى حدوث ارتباك وخلافات بين الرفاق الصينيين»[16].

كان تيد غرانت هو الشخصية الوحيدة في الأممية الرابعة التي نجحت في تقديم تحليل واضح وصحيح لتلك السيرورة. ففي مقال نُشر في يناير 1949 -قبل تسعة أشهر من تولي الحزب الشيوعي الصيني للسلطة- تنبأ غرانت بأن الحزب الشيوعي الصيني بقيادة ماو لن يستولي على السلطة فحسب، بل سيُسقط الرأسمالية، وسيبني نظامه على شاكلة النظام البيروقراطي الستاليني في الاتحاد السوفياتي.

لم يكن ذلك يدحض نظرية الثورة الدائمة إطلاقا، بل كان تحقيقا للثورة الدائمة في صورة مشوهة، بفعل مجموعة من الظروف الخاصة التي نشأت بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، والتي لم تكن موجودة في ثلاثينيات القرن العشرين.

أولا، تعززت قوة الاتحاد السوفياتي ومكانته بشكل هائل مع نهاية الحرب. ونتيجة لذلك، اكتسب الحزب الشيوعي الصيني دفعة هائلة في قواته العسكرية، بالإضافة إلى نفوذه بين الجماهير في الصين. إضافة إلى ذلك، سيطر الحزب الشيوعي الصيني بشكل مباشر على مساحات شاسعة من الأراضي نتيجة لنضالاته ضد حزب الكومينتانغ واليابانيين.

ومن السمات المهمة الأخرى للوضع العالمي آنذاك انهيار معظم القوى الإمبريالية القديمة. في غضون ذلك لم تتمكن الإمبريالية الأمريكية، التي كانت قد برزت باعتبارها قوة إمبريالية مهيمنة بشكل ساحق، من التدخل بشكل حاسم آنذاك.

وأخيرا كانت هناك حالة من التدهور الشديد للبرجوازية الصينية ونظامها. كان حزب الكومينتانغ متعفنا ومنهكا ومحبطا إلى حد كبير. وعلى الرغم من أن ماو حاول بالفعل لفترة وجيزة التصالح مع تشيانغ، فإن جيش الكومينتانغ تفكك إلى حد كبير في مواجهة جيش التحرير الشعبي الصيني بقيادة ماو، الذي وعد الجنود الفلاحين الذين انضموا إليه بالأرض. فرت البرجوازية بأعداد كبيرة، وتقدم الحزب الشيوعي الصيني بسهولة ليستولي على السلطة بمفرده.

كتب تيد غرانت في ربيع عام 1949:

«تُعلمنا الماركسية أن الحركة الفلاحية يجب أن تجد قيادة لها في المدن، إما من البرجوازية أو من البروليتاريا. فحيثما تكون البرجوازية، يكون لدينا بالطبع تطور رأسمالي. أما حيثما تتولى البروليتاريا القيادة، فتكون لدينا الثورة الاشتراكية. وهنا لدينا شكل فريد من تلك الأخيرة، إذ تتمتع الحركة الفلاحية بقيادة مركزية تتمثل في الحزب الستاليني، الذي تعود جذوره إلى موسكو. والذي اعتمادا على الفلاحين يدخل المدن ليس بهدف ومنظور حزب شيوعي حقيقي، بل بهدف ترسيخ سلطته من خلال المناورة بين الطبقات. وهو يفعل ذلك بنقل قاعدته الاجتماعية إلى البروليتاريا -ليس بكونه ممثلا مباشرا لها كما يفعل الحزب البلشفي- بل بطريقة بونابرتية»[17].

وأضاف قائلا: «تُشكل الستالينية ائتلافا في ظل ظروف انكسر فيها ظهر البرجوازية، وذلك للمناورة بالبرجوازية ضد خطر تمرد البروليتاريا. وبالتالي فإن الائتلاف الذي يقترحه الستالينيون في الصين لن يعني انتصار البرجوازية أو حتى بقاءها. سيتم استخدامها من أجل الحصول على مساحة للتنفس لتنظيم آلة الدولة الستالينية البونابرتية على غرار موسكو»[18].

هذا بالضبط ما حدث عقب استيلاء الحزب الشيوعي الصيني على السلطة في أكتوبر. استطاع تيد غرانت، بفضل تمكنه من المنهج الديالكتيكي للماركسية، رؤية الواقع وهو يتطور، ليس من خلال التكرار الدوغمائي للصيغ المجردة، بل من خلال إثراء الاستنتاجات العامة للنظرية الماركسية وتطبيقها عمليا.

وبالاستناد إلى هذا المنهج تمكن حتى من التنبؤ في عام 1949 بأنه مع استيلاء الحزب الشيوعي الصيني على السلطة بأغلبية ساحقة مستقلة عن موسكو، سيصل النظامان في النهاية إلى صراع حول المصالح القومية المتضاربة لبيروقراطيتيهما. وقد تحقق كل ذلك مع الانقسام الصيني السوفياتي في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات.

طابع «الصداقة الصينية السوفييتية»، عام 1950، يرمز إلى العلاقات بين جمهورية الصين الشعبية والاتحاد السوفييتي.

التيهان

لـو كان التروتسـكيون الصينيـون قـد شـاركوا تيـد غرانـت وجهـة نظـره، لكان في مقدورهـم الاسـتعداد قبـل انتصـار الحـزب الشـيوعي الصـيني لإعـادة تجميـع قـوى الماركسـية الحقيقيـة. لكنهـم للأسـف، لـم يفعلـوا ذلـك، ولذلـك عندمـا تـولى مـاو السـلطة، اضطـروا إلى التراجـع على عجـل.

تمكنـت أقليـة منهـم فقـط مـن الفـرار إلى هونـغ كونـغ ومـاكاو. بينمـا بقـي عـدد كـبير منهـم، ليتـم اعتقالهـم مـع زحـف جيـش التحريـر الشـعبي الصـيني عبر الـصين. وقـع كـثيرون آخـرون في قبضـة مـاو عـام 1952 عندمـا شـن حملـة «التطـهيرات الـكبرى ضـد التروتسـكيين» في جميـع أنحـاء الـصين، في محاولتـه تعزيـز مكانـة بيروقراطيـة الحـزب الشـيوعي الصـيني، وإرضـاء سـتالين.

تسـبب اسـتيلاء مـاو على السـلطة في نشر مزيـد مـن الارتبـاك والتيهـان بين التروتسـكيين الصينـيين. ولـفترة مـن الزمـن بعـد عـام 1949، اسـتمر الحـزب الشـيوعي الثـوري الصـيني، بزعامـة بنـغ، في اعتبـار حكومـة مـاو مجـرد نظـام بونابـرتي برجـوازي جديـد، مليء بالتناقضـات، وأنـه يدفـع الـصين نحـو التـورط في حـرب عالميـة ثالثـة[19].

بينمـا تـبنى وانـغ فـانشي مـن جهتـه نظريـة ماكـس شـاختمان عـن «الجماعيـة البيروقراطيـة» التي اعـتبرت الأنظمـة السـتالينية شـكلا جديـدا مـن أشكال المجتمع الطبقـي، وأنـه لا ينبغـي للثـوريين الدفـاع عـن تلـك الأنظمـة ضـد العـدوان الإمبريـالي[20]. ولـم يتخـل وانـغ عـن هـذه الفكـرة المربكـة إلا بعـد سـنوات.

لـم يكـن يُتوقـع أي توضيـح مـن جانـب قيـادة الأممية الرابعـة، التي انتهجـت النهـج الميكانـيكي نفسـه. فجيمـس كانـون، زعيـم حـزب العمـال الاشتراكي الأمـريكي، لـم يـعترف بسـقوط الرأسـمالية في الـصين إلا في عـام 1955.

في المقابـل، سـارع تيـد غرانـت إلى الاحتفـاء بالثـورة الصينيـة باعتبارهـا ثـاني أعظـم حـدث في التاريـخ بعـد الثـورة الروسـية. لكـن ورغـم ترحيبـه بالثـورة، فقـد حـذر مـن أن الطابـع السـتاليني لنظـام الحـزب الشـيوعي الصـيني -افتقـاره التـام للديمقراطيـة العماليـة، ووجـود بيروقراطيـة ذات امتيـازات، وتبنيـه لنظريـة «الاشتراكيـة في بلـد واحـد»- سـيُهدد في نهايـة المطـاف مكاسـب الثـورة.

ونبـه إلى أنـه بـدلا مـن الاشتراكيـة الحقيقيـة: «... لـن ينتج عـن قيـادة السـتالينيين سـوى صـورة كاريكاتوريـة بشـعة عـن المفهـوم المـاركسي للثـورة. [...] لا شـك في أنـه سـيتحقق تقـدم اقتصـادي هائـل. لكـن الجمـاهير، عمـالا وفلاحين، سـتجد نفسـها خاضعـة للبيروقراطيـة»[21].

فـإذا لـم يسـتول عمـال الـصين على السـلطة عبر ثـورة سياسـية ثانيـة، سـوف تسـعى شريحـة مـن البيروقراطيـة في مرحلـة معينـة على إعـادة الرأسـمالية. ومـن هنـا فقـد احتفظـت أفكار تروتسـكي حـول الـصين، والتي هـي الأفكار الماركسـية الأصيلـة، بأهميتهـا باعتبارهـا الوسـيلة الوحيـدة لحماية مكاسـب الثـورة مـن خلال إعـداد القـوى لقيـادة تلـك الثـورة السياسـية.

بهـذه الأفكار كان بـإمكان أفضـل عنـاصر التروتسـكية الصينيـة أن تبـدأ العمـل المـضني لإعـادة بنـاء قواهـا ونشر الأفكار الماركسـية الأصيلـة في الـصين. لكـن ونظـرا لعجزهـم عـن فهـم التطـورات الجاريـة، وافتقارهـم إلى منظـور موحـد، اندثـر التروتسـكيون الصينيـون المشـتتون والمقموعـون في بـر الـصين الرئـيسي في خمسـينيات القـرن المـاضي.

بعـد ذلـك، أصبـح التروتسـكيون الصينيـون قـوة هامشـية اسـتمرت في هونـغ كونـغ لبضعـة عقـود، وتعرضـوا لمزيـد مـن الانقسـامات فيمـا بينهـم. واليـوم اختفـت تمامـا جميـع المنظمـات التي انحـدرت مبـاشرة مـن الرابطـة الشـيوعية الصينيـة الأصليـة.

الإرث

مـع أن هـذه المقالـة ركـزت على الأخطـاء النظريـة الرئيسـية التي ارتكبهـا التروتسـكيون الصينيـون خلال ثلاثـة عقـود مـن نشـاطهم، فإننـا نـدرك أن هـؤلاء الرفـاق كانـوا يبنـون ثورتهـم في ظـروف بالغـة التعقيـد والصعوبـة. وجـد معظمهـم نفسـه في ذلـك الوضـع ولـم يكـن لديهـم سـوى القليـل مـن الوقـت أو المـواد اللازمـة لتثقيـف أنفسـهم بـالأفكار الماركسـية الأصيلـة. كل مـا كان لديهـم هـو رغبـة عارمـة في تحريـر البشريـة، والاسـتعداد لتجـاوز جميـع العقبـات.

لـم يكـن بينهـم أدنى ازدراء للنظريـة. وكمـا ذكرنـا، فقـد ترجمـوا وأنتجـوا بعنايـة المـواد النظريـة التي عثروا عليهـا إلى اللغـة الصينيـة، ودرسـوها بحـرص شـديد. لكـن للأسـف لـم يتمكـن أي منهـم مـن مواجهـة التحديـات السياسـية الهائلـة التي واجهتهـم خلال الـفترة التي أعقبـت الحـرب العالميـة الثانيـة.

واليـوم لـم تفقـد أفكار تروتسـكي شـيئا مـن أهميتهـا للـصين. فقـد تمـت اسـتعادة الرأسـمالية الآن، بقيـادة الحـزب الشـيوعي الصـيني، بينمـا يتعـرض مئـات الـملايين مـن البروليتـاريين والـفلاحين الصينـيين للاضطهـاد والاسـتغلال مـن قبـل البرجوازيـة الوطنية.

الثـورة الصينيـة القادمـة سـتكون أهميتهـا للعالـم أعظـم مـن أهميـة سـابقتها. فالـصين الآن ثـاني أكبر قـوة إمبرياليـة وموطـن أكبر طبقـة بروليتاريـا في العالـم.

قبـل شـهر مـن اغتيالـه على يـد عميـل سـتاليني، تلقى تروتسـكي نبـأ صـدور الترجمـة الصينيـة لكتابـه «تاريـخ الثـورة الروسـية». وقـد وصـف ذلـك النبـأ بأنـه «عيـد سـعيد بالنسـبة لي»، وبـدأ بكتابـة مقدمـة لتلـك الطبعـة. للأسـف لـم يُكتـب لتلـك المقدمـة أن تكتمـل قبـل وفاتـه المفاجئـة، لكـن في المسـودة التي احتفظـت بهـا شريكـة تروتسـكي، ناتاليـا سـيدوفا، نجـد الملاحظـة التاليـة:

«وحدهـم الثوريـون، الثوريـون المتمرسـون الذيـن أغنتهـم تجـارب المـاضي، قـادرون على الارتقـاء إلى مسـتوى الأحـداث العظيمـة. إن الشـعب الصـيني مقـدر لـه أن يحتـل مركـز الصـدارة في تقريـر مـصير البشريـة المسـتقبلية»[22].

لقـد قـام التروتسـكيون الصينيـون بواجبهـم الثـوري بكل شـجاعة، لكـن ظروفـا مأسـاوية حالـت دون تحقيقهـم النجـاح، ويبقـى على ورثـة بسـالتهم الثوريـة إكمـال ذلـك النضـال.

References online at **marxist.com/idom-51-references** or scan the QR code

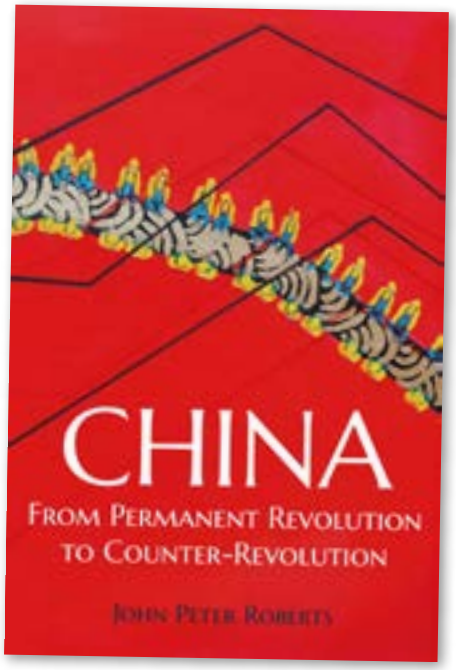

Wellred Books
wellred-books.com

Learn more about the Chinese Revolution

SOCIALIST APPEAL

العدد 66 ينـــاير 1949

المقتطـف التـالي مـن مقـال كتبـه تيـد غرانـت في يناير 1949، في الوقـت الـذي كان فيـه جيـش التحريـر الشـعبي الصـيني بقيـادة مـاو يحقـق انتصـارات في شـمال الـصين. نعيـد نشر هـذا المقـال لأنـه يوضـح مسـبقًا العمليـات التي سـتقود إلى اسـتيلاء مـاو على السـلطة وإسـقاط الرأسـمالية في الـصين. نشـجّع القـرّاء على الاطلاع على النسـخة الكاملـة مـن المقـال عبر زيـارة marxist.com/china49 أو عبر مسـح رمـز الاسـتجابة السريعـة (QR code).

البـرنامج الزراعي الستاليني يكسب الفلاحين

شيانغ كاي شيك يقيد مجنديه لمنع هروبهم

مـع التقـدم السريـع للجيـش الأحمـر الصـيني، أخـذ دبلوماسـيو وزارة الخارجيـة الأمريكيـة ووزارة الخارجيـة البريطانيـة يناقشـون بجديـة احتمـال الانهيـار الكامـل لنظـام شـيانغ كاي شـيك. شرعـت الصحافـة الرأسـمالية بأكملهـا تكتـب بـنبرة تشـاؤمية عـن احتمـال سـقوط شـمال ووسـط الـصين حتى نهـر اليانغـتسي تحـت سـيطرة السـتالينيين.

بعـد ثلاث سـنوات على انهيـار الإمبرياليـة اليابانيـة، تمكـن الجيـش الأحمـر مـن السـيطرة على منشـوريا ومعظـم شـمال الـصين. العاصمـة الصينيـة نانجينـغ، التي تضـم أغنى مـدن الـصين -شـنغهاي- والتي يبلـغ عـدد سكانهـا خمسـة ملايين نسـمة، توشـك أن تقـع في قبضـة الجيـش الأحمـر. أمـا الأراضي التي يسـيطر عليهـا السـتالينيون بالفعـل، فيبلـغ عـدد سكانهـا أكثر مـن 170 مليـون نسـمة.

ويشـعر الرأسـماليون البريطانيـون، الذيـن تبلـغ اسـتثماراتهم في الصين 450 مليـون جنيـه إسترلـيني، بخيبـة أمـل كـبيرة إزاء احتمـال خسـارة هـذا المجـال الاسـتثماري المربـح. أمـا الإمبرياليـة الأمريكيـة، التي أدخلـت الـصين ضمـن نطـاق نفوذهـا مـع ضعـف القـوى الإمبرياليـة الأخـرى خلال الحـرب، فقـد قدمـت لحكومـة الكومينتانـغ مسـاعدات بقيمـة 3 مليـارات دولار، وذلـك في محاولـة يائسـة لإبقـاء الـصين حـقلا للاسـتغلال الإمبريـالي.

لكـن الإمبرياليـين الأمريكـيين يدركـون الآن أن تقديـم المزيـد من المسـاعدات ليـس إلا إهـدارا للمـال على قضيـة خـاسرة. فمـع كل المزايـا العسـكرية والتقنيـة التي كان الكومينتانـغ يتمتـع بيهـا، في المراحـل الأولى مـن الحـرب الأهليـة التي أعقبـت الحـرب العالميـة، فقـد تكبـد هزائـم متتاليـة.

نظـام الكومينتانـغ، تحـت الحكـم الديكتاتـوري لشـيانغ كاي شـيك، يمثـل ملاكي الأراضي الإقطاعيين والرأسـماليين. وتسـيطر عليـه زمـرة عسـكرية غارقـة في الفسـاد، تضطهـد العمـال والـفلاحين، وتعيـش على اسـتغلالهم.

صعود شيانغ كاي شيك

وصـل شـيانغ كاي شـيك إلى السـلطة بعـد هزيمـة الثـورة الصينيـة (1925-1927)، حيـث اضطلـع بـدور جلاد الطبقـة العاملـة. وقـد نجـح في ذلـك بفضـل سياسـة سـتالين وبوخارين وقيـادة الحـزب الشـيوعي الصـيني.

كانـت سياسـة الشـيوعيين آنـذاك هـي تشـكيل تحالـف مـع ملاكي الأراضي والرأسـماليين وأمـراء الحـرب الإقطاعيين الصينـيين، بزعـم خدمـة مصالـح النضـال ضـد الإمبرياليـة. ونتيجـة لذلـك قامـوا بإجهـاض محـاولات العمـال الاسـتيلاء على المصانـع، ومحـاولات الـفلاحين الاسـتيلاء على الأراضي. وقـام وزيـر عمـل «شـيوعي» بتخريـب الإضرابـات ومعاقبـة العمـال الـمضربين. كمـا قـام وزيـر زراعـة «شـيوعي» بـإطلاق النـار على الـفلاحين عندمـا حاولـوا الاسـتيلاء على الأراضي.

جيش التحرير الشعبي الصيني في أكتوبر 1948 يحتفل بانتصاره بعد حصار تشانغتشون الذي استمر أربعة أشهر، وهي أكبر مدينة في منشوريا وأحد مقار جيش تشيانغ كاي شيك.

فصيل متعاطف

تـم ضـم حـزب الكومينتانـغ الرأسـمالي إلى الأمميـة الشـيوعية باعتبـاره فصـيلا متعاطفـا. وفي كتابـه «الأمميـة الثالثـة بعـد ليـنين» يُـبين تروتـسكي، دور السـتالينيين قـائلا:

«انضـم الكومينتانـغ إلى الكومـنترن باعتبـاره حزبـا متعاطفـا في أوائـل عـام 1926، وذلـك بموافقـة المكتـب السـياسي للحـزب الشـيوعي السـوفياتي، مـع صـوت معـارض وحيـد هـو صـوت تروتـسكي. وقـد شـارك هـو هـان مين، زعيـم الكومينتانـغ اليمـيني، في الجلسـة العامـة السادسـة للجنـة التنفيذيـة للأمميـة الشـيوعية، في فبرايـر 1926، باعتبـاره مندوبـا أخويـا عـن الكومينتانغ. وكان شـاو كي تسي، أحـد أتبـاع شـيانغ كاي شـيك، مندوبـا في الجلسـة العامـة السـابعة للجنـة التنفيذيـة للأمميـة الشـيوعية، في نوفـمبر 1926»[1].

في 21 و22 مارس 1927، استولى عمال شنغهاي على المدينة. فبدأ شيانغ على الفور الاستعدادات لذبحهم. وتآمر مع الإمبرياليين لسحق العمال.

وبدلا من أن يستعد الستالينيون للنضال، قدموا دعما كاملا لشيانغ. ذكرت الجريدة الرسمية للكومنترن، «مراسلات الصحافة الأممية»، بنسختها الفرنسية، بتاريخ 23 مارس 1927، صفحة 443: «إن الكومينتانغ، وعلى عكس ما يدعي الإمبرياليون، لم ينشق، بل ازدادت صفوفه تماسكا».

وفي 30 مارس، كتبوا:

إن «انقسام الكومينتانغ والعداء بين بروليتاريا شنغهاي وبين الجنود الثوريين شيئان مستبعدان تماما في الوقت الراهن... وقد أعلن شيانغ كاي شيك بنفسه أنه سيخضع لقرارات الحزب... وعلى عكس ما يحاول الإمبرياليون إيهامنا، فإنه لن ينضم ثوري مثل شيانغ كاي شيك، إلى تشانغ تسو لين (العسكري الشمالي) لمحاربة حركة التحرر...»

ثم قام شيانغ بتنظيم انقلاب، وذبح طليعة الطبقة العاملة، وقام بحظر النقابات العمالية والمنظمات الفلاحية، والحزب الشيوعي، وحرم الجماهير من جميع حقوقها.

تعرضت الجماهير لهزيمة نكراء، واضطر من تبقى من قيادة الحزب الشيوعي الصيني للفرار إلى المناطق الريفية، وهناك حاولوا تنظيم حرب فلاحين.

صمود جيش الفلاحين

أفرزت حرب العصابات قادة ذوي عبقرية عسكرية فذة. فقد نجح ماو تسي تونغ وتشو إن لاي[2] وغيرهما، في الإفلات من قبضة القوات العسكرية الجبارة التي حشدها الكومينتانغ ضدهم.

وعلى الرغم من الخط السياسي الخاطئ الذي أدى إلى سلسلة من الكوارث، ففي أحد أبرز الإنجازات التي شهدها التاريخ العسكري، تراجع ماو من وسط وجنوب الصين لمسافة 6000 ميل إلى معاقل الجبال المحيطة بمدينة ينان، حيث تمت إقامة جمهورية «سوفياتية». هناك، ورغم كل محاولات نظام شيانغ لإزاحتهم، نجحوا في الصمود أمام الهجمات المتتالية. ويكمن سر نجاحهم في قيامهم بتوزيع الأرض على الفلاحين في تلك المنطقة الصغيرة، التي يبلغ عدد سكانها، وفقا لبعض التقديرات، حوالي 10 ملايين نسمة.

نظام شيانغ الفاسد

خلال الفترة الفاصلة بين الحربين، أثقل نظام شيانغ كاهل العمال والفلاحين بأعباء متزايدة. وفي بعض المناطق، كان المسؤولون المحليون الفاسدون يجمعون الضرائب من الفلاحين **لمدة ثمانين سنة مسبقا.**

كان هناك تبديد عسكري لا ينتهي للثروة، وأثبت نظام الكومينتانغ الضعيف عجزه عن خوض نضال ثوري ضد توغلات اليابان الإمبريالية.

تحول نظام شيانغ إلى نظام قائم على الرشوة والإرهاب البوليسي. وفي غضون عقدين من الزمن، انحط النظام بشكل كامل من أعلى الهرم إلى أسفله، حتى أنه فقد معظم قاعدة دعمه، حتى بين الطبقة الوسطى.

الحرب تغير الوضع

بعد انهيار اليابان، وبمساعدة من الجيش الأحمر في منشوريا الذي ساعد الستالينيين على الاستيلاء على الذخائر اليابانية، سقطت أجزاء كبيرة من منشوريا والشمال في أيدي الستالينيين.

خاض الجيش الأحمر الصيني حرب عصابات ضد اليابان طوال فترة الحرب، وكان في موقع استراتيجي يسمح له بالسيطرة على مناطق معينة بعد هزيمة اليابان. لكن حتى خلال الحرب، كان هاجس شيانغ الرئيسي هو الخطر الاجتماعي الموجود في الداخل، وكيفية التعامل مع الستالينيين والعمال، ولولا وضوح هزيمة الإمبريالية اليابانية في المراحل الأخيرة، لكان من المرجح أن يستسلم ويعقد تسوية معها.

نظام يحتضر

ساعدت الإمبريالية الأمريكية شيانغ بضخ الذخائر والإمدادات الأخرى، بل وتدخلت عسكريا بشكل مباشر، عبر أسطولها وقواتها الجوية، لنقل قوات الكومينتانغ إلى منشوريا وشمال الصين. حقق شيانغ نجاحات أولية، لكنها ذهبت سدى. كان يقود نظاما يحتضر، أكثر تخلفا حتى من النظام

القيصري في روسيا. كان النظام فاسدا لدرجة أن مسؤولين باعوا أجزاء كبيرة من الإمدادات للجيوش الستالينية مقابل الذهب، واختلس وزراء ومسؤولون آخرون في حكومة شيانغ جزءا كبيرا من الدولارات التي قدمتها أمريكا للحرب. ولم يصل إلى القوات الوطنية على الجبهة إلا جزء ضئيل من تلك الإمدادات والذخائر.

وكما هو الحال في جميع الأنظمة المحكوم عليها بالفناء، فقد أخذ القادة العسكريون يتآمرون باستمرار ضد بعضهم البعض. وعلى سبيل المثال، قام شيانغ بحرمان الجنرال فو تسو يي، الجنرال الوحيد المتميز الذي أظهر كفاءة حقيقية في صفوف الوطنيين، من الإمدادات خوفا من أن يسعى إلى إزاحته من منصبه. لقد تفوقت استراتيجية وتكتيكات قيادة الجيش الأحمر على جنرالات الكومينتانغ.

القضايا الاجتماعية

أشار ماو تسي تونغ بوضوح إلى السبب الرئيسي لانتصارات الستالينيين الصينيين: **القضايا الاجتماعية.** فشعار «الأرض للفلاحين»، كما في الثورة الروسية، كان بمثابة الرصاصة التي قضت على الإقطاعيين ونظامهم الفاسد. نفّذ الستالينيون الصينيون ثورة زراعية واسعة النطاق. وهذا هو الفرق الجوهري بين الصراع الذي اندلع في عام 1927 واليوم. هذا هو ما تسبب في تفكك الجيوش التي حاول شيانغ استخدامها لسحق الثورة الزراعية.

تتألف جيوش شيانغ من فلاحين -بل أفقر الفلاحين- لا يملكون المال الكافي للتهرب من التجنيد برشوة المسؤولين.

> **... إن السبب الرئيسي لانتصارات الستالينيين الصينيين قد أشار إليه ماو تسي تونغ بوضوح: المسائل الاجتماعية المطروحة.**

«مربوطون معا»

حتى صحيفة «نيوز كرونيكل» (11 دجنبر 1948) أقرت بما يلي:

«هناك استياء بين صفوف الجيش الوطني. يتقاضى جنود شيانغ حوالي خمسة بنسات شهريا.

«في بعض القرى، يُوثق المجندون معا بالحبال في طريقهم إلى الثكنات، وعندما يسافرون بالقطار، تُغلق عليهم أبواب العربات حتى لا يتمكنوا من الفرار».

«إنهم، بطبيعة الحال، يفرون حاملين أسلحتهم، حتى أن فرقا بأكملها تنشق عند مواجهة البرنامج الزراعي للستالينيين».

البرنامج الزراعي الستاليني

في المؤتمر الزراعي الوطني للحزب الشيوعي الصيني الذي انعقد في 13 شتنبر 1947، تم اقتراح سن قانون زراعي يتضمن الأحكام التالية:

«المادة 1: يُلغى النظام الزراعي الإقطاعي وشبه الإقطاعي. ويُقام نظام زراعي قائم على مبدأ «الأرض لمن يزرعها».

«المادة 2: تُلغى حقوق ملكية الأرض لجميع الملاكين الكبار.

«المادة 3: تُلغى حقوق ملكية الأرض لجميع الأضرحة والمعابد والأديرة والمدارس والمؤسسات والمنظمات.

«المادة 4: تُلغى جميع الديون التي تراكمت في الأرياف قبل إصلاح النظام الزراعي».

المادة 10، الموجهة مباشرة إلى جنود الكومينتانغ وحتى ضباطه، تنص على ما يلي:

«القسم ج: يُمنح جميع أفراد جيش التحرير الشعبي، والحكومات

الديمقراطية، وجميع المنظمات الشعبية الذين يقطنون الريف، أراضي وممتلكات تُعادل ما يملكه الفلاحون، لهم ولأسرهم.

«القسم د: يُمنح كبار ملاكي الأراضي وأسرهم أراضي وممتلكات تُعادل ما يملكه الفلاحون.

«القسم هـ: تُمنح لأسر ضباط وجنود الكومينتانغ، وأعضاء حزب الكومينتانغ، وغيرهم من أفراد العدو الذين يقطنون المناطق الريفية، أراضي وممتلكات تُعادل ما يملكه الفلاحون».

سلبية العمال

من أبرز الحقائق التي تحدد الوضع في الصين هي السلبية النسبية للطبقة العاملة. صحيح أنه نتيجة لانهيار جيوش شيانغ، اندلعت إضرابات واسعة النطاق في المدن الكبرى، مثل شنغهاي، وقوانغتشو، وهانكو، ونانجينغ، وذلك على الرغم من ظروف القمع. لكن من الواضح أنه مع تقدم الستالينيين نحو المدن الكبرى على نهر اليانغتسي، فإن العمال، وبسبب عدم وجود بديل جماهيري، لم يجدوا سوى الاصطفاف خلف راية الستالينيين. لم يؤيد العمال قط نظام شيانغ كاي شيك.

كل العمال الاشتراكيين يشيدون بحرارة بتحطيم الإقطاع والرأسمالية على نطاق واسع في هذا الجزء المهم من آسيا، حتى وإن تم ذلك تحت قيادة ستالينية. إن **تداعياته طويلة الأمد** لا تقل أهمية عن ثورة أكتوبر نفسها.

كيف ينظر الرأسماليون إلى الأمر

لا يمكن تقديم تحليل ماركسي للصورة القاتمة التي تُخيّم على الطبقة الرأسمالية العالمية أفضل من ذلك الذي ورد في افتتاحية صحيفة التايمز بتاريخ 10 نوفمبر 1948:

«لا يمثل هذا، في أحسن الأحوال، سوى انتكاسة واحدة (هسوتشو التي كانت تحت سيطرة الوطنيين آنذاك وسقطت منذ ذلك الحين) بعد أشهر من المكاسب التي رجحت كفة الميزان -العسكري والصناعي والأيديولوجي- لصالح الشيوعيين. إن توسع نفوذهم على مساحات شاسعة من شمال ووسط الصين له دلالة أعمق بكثير من الغزو الياباني قبل عشر سنوات، فالشيوعيون -الذين تلقوا دعما حاسما من روسيا والماركسيين- يستدعون وينظمون قوى ثورية محلية. يجب مقارنة هذه الانتفاضة الحالية، في اتساع نطاقها وفي عواقبها المحتملة للغاية، بالثورة الروسية عام 1917 - التي انبثقت منها بشكل مباشر وواضح. إن تحقيق نجاح أوسع للشيوعيين الصينيين من شأنه أن يتيح نفوذا أوسع، وفي اللحظة المناسبة نجاحا أوسع، للقوة التي يتحالفون معها. وستحظى المخططات السوفياتية لتغيير موازين القوى لملايين الآسيويين المتخلفين، المنضمين إلى المعسكر الممتد بالفعل من نهر أودر إلى سخالين، بأكبر قدر من التعزيزات حتى الآن.

«[...] بإمكانهم الاعتماد على الفلاحين في صفوفهم، وقد استطاعوا كسب تأييدهم بمصادرة معظم أراضي كبار الملاكين وإعادة توزيعها. لقد ازدهرت الإصلاحات الزراعية للشيوعيين بشكل ملحوظ حتى الآن، لأنهم لم يضطروا لإطعام العديد من المدن الكبيرة؛ إذ تم تخزين الغذاء بشكل رئيسي في المناطق الريفية.

«في بعض المناطق، قام قائد عسكري بإعدام أو سجن من اعتبرهم معادين للشيوعية؛ وفي مناطق أخرى، تم إظهار التسامح مع تغييرات طفيفة في نمط الحياة التقليدي. حتى أن رجال الأعمال وغيرهم مُنحوا خيار البقاء أو الرحيل. ويبدو أن هذا التسامح هو السياسة التي ينهجها ماو تسي تونغ، الزعيم الشيوعي البارع. تُظهر كتاباته وخطاباته أنه ماركسي راسخ، لكنه يُدرك أن تحليل ماركس لفرص الثورة في أوروبا الصناعية في القرن الماضي لا يمكن تطبيقه بحذافيره على الوضع الزراعي البدائي السائد في معظم أنحاء الصين. ويبدو أنه قرر بلوغ هدفه الشيوعي على مرحلتين: أولا، إقامة نظام تجارة حرة نسبيا، على غرار السياسة الاقتصادية الجديدة التي طرحها لينين بعد الفشل الأولي للشيوعية المتشددة في روسيا. وهذه هي المرحلة التي يعلن عنها حاليا، آملا -وقد نجح إلى حد ما- ليس فقط في كسب تأييد الفلاحين، بل أيضا في تهدئة مخاوف العديد من سكان المدن. ثانيا، بعد إنجاز المرحلة الأولى، يُخطط للخطوة التالية نحو الاشتراكية الماركسية».

إن الإشارات إلى الماركسية وسياسة ماو الشيوعية خاطئة بالطبع. فقد تم وصف السياسة الستالينية في روسيا وأوروبا الشرقية والصين بأنها ماركسية من قِبل جميع الصحفيين الرأسماليين المعاصرين. إنها في الحقيقة تحريف للماركسية. ومع ذلك فإن صحيفة التايمز ترى أن تكتيكات الستالينيين الصينيين ستكون مشابهة لتكتيكات الستالينيين في أوروبا الشرقية.

وجهان لعملة واحدة

بينما ندعم القضاء على الإقطاع في الصين، يجب علينا التأكيد على أن قيادة الستالينيين لن تفضي إلا إلى تشويه بشع للمفهوم الماركسي للثورة. لن تنشأ ديمقراطية حقيقية، بل نظام شمولي وحشي، مثل نظام شيانغ كاي شيك. وكما هو الحال مع أنظمة أوروبا الشرقية، سوف يتخذ ماو من روسيا نموذجا له. لا شك أنه سيتحقق تقدم اقتصادي هائل. لكن الجماهير، سواء العمال أو الفلاحين، ستجد نفسها مستعبدة من طرف البيروقراطية.

يدمج الستالينيون في نظامهم عناصر كانت جنرالات إقطاعيين سابقين وعناصر رأسمالية وبيروقراطي المدن الذين سيشغلون مناصب الامتيازات والسلطة.

وبناء على ذلك الاقتصاد المتخلف، قد يؤدي التفاوت الكبير بين الفلاحين (كما حدث بعد الثورة الروسية خلال فترة السياسة الاقتصادية الجديدة) والذي ساهم فيه فشل تأميم الأراضي، والعناصر الرأسمالية في التجارة، إلى خلق أرضية خصبة للثورة الرأسمالية المضادة. يجب التذكير بأن البروليتاريا في الصين أضعف بكثير من الفلاحين مقارنة بروسيا خلال فترة السياسة الاقتصادية الجديدة، وذلك بسبب التخلف الشديد للصين. وحتى في تشيكوسلوفاكيا وبلدان أوروبا الشرقية الأخرى، حيث كانت العناصر الرأسمالية أضعف نسبيا، ظل خطر انقلاب رأسمالي قائما لفترة من الزمن. إن غياب أي رقابة ديمقراطية من جانب العمال والفلاحين، وفرض النظام الاستبدادي الشمولي للبربرية الآسيوية ووحشية النظام القديم، يعزز هذا الاحتمال. ومع ذلك فإنه يبدو من المرجح أن تتعرض العناصر الرأسمالية للهزيمة بسبب الاتجاه التاريخي لانحلال الرأسمالية على الصعيد العالمي. ويتجلى عجز الإمبريالية العالمية في حقيقة أنها، بينما تدخلت مباشرة ضد الثورة الصينية في الفترة 1925-1927، تقف اليوم عاجزة أمام انهيار نظام شيانغ كاي شيك.

ومع ذلك فإنه من المرجح أن يحصل ستالين على زعيم جديد على غرار تيتو. وقد بدأ المعلقون الرأسماليون الأكثر دهاء في التكهن بالفعل بهذا الأمر، رغم أنهم لا يجدون فيه عزاء يذكر. سيحظى ماو بقاعدة قوية في الصين، التي يبلغ تعداد سكانها ما بين 450 و500 مليون نسمة، وبمواردها الهائلة، فضلا عن الدعم الشعبي الذي سيحظى به نظامه في المراحل الأولى. وسوف تكون الصراعات التي ستندلع نتيجة لذلك وسيلة إضافية لمساعدة الطبقة العاملة العالمية على فهم الطبيعة الحقيقية للستالينية.

تغير ميزان القوى

يشهد ميزان القوى العالمي تغيرا حاسما. وتأثير الثورة الصينية، مهما كان شكلها مشوها، سيؤدي حتما إلى تمهيد الطريق لاندلاع اضطرابات في آسيا التي تشهد أصلا حروبا تحررية للانعتاق من الاستعمار، وحروبا أهلية بين الطبقات في المجتمع الآسيوي. سوف تضعف الإمبريالية بشكل لا رجعة فيه.

قبل عقود عديدة، كتب ماركس أن الثورة في الصين قد تنذر بانهيار الرأسمالية في أوروبا. وقال كاتب افتتاحية صحيفة ديلي تلغراف، في 30 نوفمبر 1948، متشائما من تأثيرها على أوروبا الغربية ما يلي:

«حتى هزيمة المساعي الشيوعية للسيطرة على أوروبا الغربية قد لا تعوض خسارة الصين، بعدد سكانها الهائل، ومنشوريا بإمكانياتها الاقتصادية القيّمة».

لقد تمكن التروتسكيون، في شنغهاي وكانتون وغيرها من المدن الكبرى، من تنظيم مجموعات بين العمال ذات نفوذ كبير في بعض النقابات العمالية غير الشرعية. وهم ما يزالون أوفياء لمبادئ ماركس ولينين. إنهم يرسخون تقاليد الحركة الماركسية التي ستؤدي على المدى البعيد إلى الإطاحة، بالوسائل الثورية، بالنظام البيروقراطي الستاليني، وإقامة دولة عمالية سليمة تكون فيها السيطرة الديمقراطية في أيدي الجماهير.

الرجل الذي أحب الكلاب

كلاسيكية معاصرة عن اغتيال ليون تروتسكي.

رامون ميركادر على سطح مركز للشرطة في مكسيكو سيتي بعد اغتياله لليون تروتسكي.

تنسج الرواية التاريخية لليوناردو بادورا «الرجل الذي أحب الكلاب» ببراعة خيوط حياة ليون تروتسكي وقاتله رامون ميركادر، من خلال شخصية الكاتب الكوبي الخيالية إيفان ماتوريل. وتتناول هذه المراجعة، التي كتبها **آلان وودز** عند صدور الرواية باللغة الإنجليزية عام 2014، بعض السيرورات السياسية الهامة التي تنعكس في أحداثها.

يُعدّ صدور رواية «الرجل الذي أحب الكلاب» للكاتب الكوبي ليوناردو بادورا، باللغة الإنجليزية، حدثا أدبيا وسياسيا بالغ الأهمية. لقد قرأت هذه الرواية الرائعة عند صدورها بالإسبانية، وقد تركت في نفسي أثرا عميقا. كنت أنوي كتابة مراجعة عنها حينها، لكن ظروفا حالت دون ذلك. والآن سأعمل، بكل سرور، على تدارك ذلك التقصير.

ولد ليوناردو بادورا في هافانا، كوبا، عام 1955، وهو روائي مرموق، بالإضافة إلى كونه صحفيا وناقدا. وهو مؤلف للعديد من الروايات، ومجموعتين قصصيتين[1]، وعدة مجموعات من الكتب غير الروائية. تُرجمت رواياته التي تدور حول المحقق ماريو كوندي إلى لغات عديدة، وحازت على جوائز أدبية عالمية.

يُعرف بادورا برواياته البوليسية، لكن روايته «الرجل الذي أحب الكلاب» تُمثل نقلة من طبيعة مختلفة تماما. في رأيي يمكن اعتبارها بحق من كلاسيكيات الأدب الحديث، فهي مزيج من البحث التاريخي الدقيق وإبداع روائي من الطراز الرفيع.

العنوان المثير للاهتمام هو نتاج حبكة أدبية يحاول من خلالها المؤلف الربط بين المصائر المختلفة للشخصيات الرئيسية الثلاث في الرواية: الكاتب الكوبي إيفان ماتوريل، والثوري الروسي العظيم ليون تروتسكي، وقاتله رامون ميركادر. وهذا الأخير هو الرجل الذي أحب الكلاب. وسواء أكان ذلك التعلق بالكلاب حقيقيا أم لا، فهو في النهاية غير ذي صلة بجوهر الرواية. وكما هو الحال في أفضل تقاليد الروايات التاريخية، يقوم بادورا بالمزج بين الحقائق التاريخية وبين الإبداع الفني المتقن.

الجريمة والعقاب

تدور أحداث القصة حول شخصية خيالية، إيفان كاردیناس ماتوريل، والذي كان في شبابه كاتبا كوبيا واعدا، إلى أن اصطدم يوما ما بالرقابة الستالينية التي صنفت إحدى قصصه بأنها معادية للثورة. تعرقلت مسيرته المهنية بسبب فئة من البيروقراطيين والانتهازيين والمتملقين، واضطر إلى الكفاح من أجل لقمة العيش بالاشتغال مدققا لغويا في مجلة بيطرية. في بداية الرواية، نلتقي به في جنازة زوجته، رجلا محبطا ومكسورا يعيش في كوخ متداعٍ بسقف يرشح ماء، وعزاؤه الوحيد هو كلبه الأليف.

وبينما كان يتأمل في وفاة زوجته، بدأ في استرجاع ذكريات حياته الماضية، وتذكر لحظة صدفة غير عادية. ففي إحدى أمسيات عام 1977، وبينما كان يتنزه على الشاطئ، التقى برجل أجنبي غامض يصطحب معه كلبيه من سلالة بورزوي الروسية، وهي سلالة نادرة الوجود في الجزيرة. كان الاهتمام المشترك بالكلاب نقطة انطلاق للحديث دار بينهما، حيث عرّف الرجل المحب للكلاب نفسه باسم خايمي لوبيز، وهو إسباني مسن يعيش في هافانا.

اتضح لاحقا أن ذلك الرجل هو رامون ميركادر، الكاتالوني الستاليني وعميل المخابرات السوفيتية (GPU) الذي اغتال، بأوامر شخصية من ستالين، ليون تروتسكي، قائد ثورة أكتوبر في روسيا إلى جانب لينين.

بعد أن قضى ميركادر عشرين عاما في سجن مكسيكي، أُطلق سراحه أخيرا سنة 1960، فسافر في البداية إلى هافانا، وبعد سنة، في 1961، تم نقله إلى موسكو، حيث وشحه أسياده في الكرملين بلقب «بطل الاتحاد السوفياتي».

إلا أن ميركادر لم ينعم بثمار جريمته. فحتى منح الجائزة كان لا بد أن يتم سرا، إذ لم تكن قد مضت سوى بضع سنوات منذ أن ندد خروتشوف بستالين ووصفه بالمجرم والقاتل الجماعي. ميركادر الذي أقسم على الصمت حتى آخر أيامه، عاش حياته في الظل تحت أنظار جهاز المخابرات السوفياتية (كي جي بي) التي لا تغفل عنه، متنقلا بين موسكو وهافانا، حيث كان مستشارا في وزارة الخارجية. وفي الأخير توفي بمرض السرطان عام 1978، في عزلة تامة.

هذه هي الحقائق المعروفة. لكن حول هذه الحقائق القليلة، ينسج بادورا خيوطا معقدة لكنها مقنعة، تمزج بين الواقع والخيال، وتنتقل بسلاسة بينهما، بحيث ينسى القارئ سريعا أنه يستخدم خياله لملء الفراغات. في البداية، يدّعي صاحب كلاب البورزوي أنه كان صديقا للرجل الذي اغتال ليون تروتسكي. هل يُعقل أن يكون هو نفسه ميركادر سيئ السمعة؟ طوال الوقت، يبقى إيفان، والقارئ، في حيرة من أمرهم بخصوص هذا السؤال.

لم يُقر خايمي لوبيز الغامض صراحة بأنه رامون ميركادر. لكن ومع انكشاف الحقيقة بشكل تدريجي، تتكشف قصة استثنائية. وتتبدد الشكوك أخيرا عندما يتوصل إيفان بطرد، بعد وفاة الرجل المسمى خايمي لوبيز، يحتوي على قصة حياة ميركادر. فبدافعٍ داخلي ما، يجد القاتل نفسه مضطرا للتحدث من قبره عن ماضيه إلى شخص غريب تماما، لا يجمعه به سوى حبه للكلاب.

ليون تروتسكي في مكتبه في المكسيك.

للوهلة الأولى، يبدو هذا السيناريو مستبعدا للغاية. غير أن خبايا النفس البشرية معقدة، ويُظهر بادورا فهما عميقا لهذه التعقيدات. من المعروف أن تأنيب الضمير قد يدفع المجرم إلى الاعتراف بجرائمه لمحقق الشرطة، وأن هذه الحقيقة يمكن أن يستغلها المحقق الماهر للحصول على الاعتراف المطلوب. وكون ميركادر يعرف بأنه يحتضر يعزز هذا الافتراض السيكولوجي.

ربما كانت خبرة الكاتب باعتباره مؤلف روايات بوليسية هي التي ساعدته على اكتساب هذا الفهم السيكولوجي. وقد أظهر الكاتب الروسي العظيم، دوستويفسكي، نفس هذا الفهم عند تناوله لنفسية القاتل راسكولنيكوف في روايته الأشهر، الجريمة والعقاب. في الواقع ثمة أوجه تشابه بين هذين العملين. ففي الأعمال التقليدية للروايات البوليسية، لا تُكشف هوية القاتل إلا في النهاية. يكمن التشويق تحديدا في الكشف التدريجي عن هوية القاتل. لكن في رواية دوستويفسكي، تُعرف هوية القاتل منذ البداية. هنا يكمن التشويق في نوع مختلف: في الكشف التدريجي عن سيكولوجية الجريمة والعقاب.

سبق للشاعر الإنجليزي الشهير، كولريدج، أن تحدث منذ زمن بعيد عن «التعليق الإرادي لعدم التصديق»[2] كشرط أساسي للاستمتاع بالشعر، وقد حقق بادورا ذلك بشكل بارع. لا شك أن الحاجة إلى التكفير عن ذنبه هي التي دفعت ميركادر إلى وصف جريمته الشنيعة لشخص غريب تماما. وقد نجح في إقناع القارئ بأن ذلك اللقاء غير المتوقع قد حدث بالفعل، وأن الكاتب إيفان موجود بالفعل، وأن الأحداث الاستثنائية في الرواية هي حقيقة وليست خيالا.

عمل متعدد الطبقات

من وجهة نظر الأسلوب الأدبي، يُظهر بادورا براعة فائقة في الربط بين أحداث حياة إيفان في كوبا، والسنوات الأولى لميركادر في إسبانيا وفرنسا، ونفي تروتسكي.

يتتبع بادورا بدقة متناهية حياة تروتسكي منذ ثورة أكتوبر، مرورا بالحرب الأهلية، حين قاد الجيش الأحمر إلى النصر على 21 جيشا غازيا، ونضال المعارضة اليسارية ضد البيروقراطية الستالينية، وسنوات المنفى الطويلة في تركيا وفرنسا والنرويج، وأخيرا المكسيك. حياة تروتسكي موثقة توثيقا جيدا، ورواية بادورا تتحرى الحقائق بدقة بالغة.

يروي بادورا القصة الكاملة لصراع تروتسكي مع ستالين والستالينية، ونفيه من الاتحاد السوفياتي، واغتياله في النهاية. لكنه عمل متعدد الطبقات، يجمع بين عدد من الخيوط المترابطة وإن كانت منفصلة. أولها قصة إيفان كارديناس ماتوريل. ثانيا حياة تروتسكي وميركادر، والحرب الأهلية الإسبانية، وخبايا جهاز المخابرات السوفيتية (GPU) التابع لستالين، وأخيرا وليس آخرا، مشكلة البيروقراطية وانعكاسات الستالينية في كوبا نفسها.

ليس من الصعب أن نعتبر أن شخصية إيفان الخيالية مستوحاة من تجارب حقيقية عاشها بادورا بنفسه أو شاهدها في غيره. فهو تجسيد حقيقي لجيل كامل من المثقفين الكوبيين الشباب الذين كرسوا حياتهم للثورة، وكافحوا وعملوا وقدموا التضحيات لضمان نجاحها، لكنهم انتهى بهم المطاف بخيبة الأمل والتقزز من الستالينية التي شوهت مُثُل الثورة وحولتها إلى صورة

كاريكاتورية بيروقراطية.

هنا، كما هو الحال في كل الأدب العظيم، يرتبط الخاص ارتباطا وثيقا بالعام: تتشابك حياة الأفراد مع مصائر الثورة - والثورة المضادة. هؤلاء ليسوا شخصيات نمطية كما هو معتاد في الروايات الشعبية، بل رجال ونساء حقيقيون. ومع ذلك، فإن حياتهم الفردية مرتبطة ارتباطا وثيقا بسيرورات تاريخية واسعة، ولا يمكن فهمها بمعزل عنها.

مشكلة ميركادر

شيئا فشيئا، وخطوة بخطوة، على غرار أفضل تقاليد قصص التحقيق، ينجح إيفان في إعادة بناء قصة مقتل ليف دافيدوفيتش تروتسكي، وهي إعادة بناء تستند إلى مجهود هائل من البحث التاريخي الدقيق، وتقترب جدا من الحقائق التاريخية. يبدو «الرجل الذي أحب الكلاب» مترددا في البداية في الكشف عن أي شيء يتعلق بماضيه، لكن تدريجيا، وقطعة قطعة، تتضح الأحجية. إن الطريقة البارعة التي يرسم بها بادورا صورة ميركادر تدريجيا هي أحد أبرز عناصر الرواية.

من خلال تقديمه لشخصيتي تروتسكي وقاتله، رامون ميركادر، يتتبع بادورا تاريخ بعض أهم أحداث القرن العشرين. ومع ذلك، يجب أن نتذكر أننا لا نتعامل هنا مع عمل تاريخي، بل مع رواية. وكما رأينا، فهي رواية ذات خيوط وطبقات متعددة. يبذل بادورا جهدا كبيرا لإعادة بناء حياة رامون ميركادر. لكن هنا تكمن المشكلة.

في مقابلة له مع صحيفة *Clarín* الأرجنتينية (8 ماي 2013)، قال بادورا:

«استغرق مني كتابة هذا العمل خمس سنوات، تخللتها أبحاث وثائقية مكثفة وشاملة. كانت المعلومات عن تروتسكي وفيرة جدا، بينما كانت المعلومات عن ميركادر شحيحة للغاية»[3].

ومع ذلك، وبفضل الجمع بين الحقائق المعروفة، واستخدام مهاراته التحليلية وخياله الواسع، نجح بادورا ببراعة في رسم صورة مقنعة للغاية للرجل الذي قتل تروتسكي.

من المعروف أن الكاتب يميل بطبيعته إلى التعاطف مع الشخصية التي يرسمها. وليس من الصعب فهم سبب ذلك التعاطف. فلكي يُصور الكاتب الرجال والنساء كبشر حقيقيين، لا مجرد شخصيات مجردة، لا بد له من الغوص في أعماقهم وفهم بواعثهم وعواطفهم ومعتقداتهم الراسخة، والكشف عن دوافع أفعالهم.

كان تروتسكي كثيرا ما يستشهد بمقولة الفيلسوف سبينوزا: «لا تبك ولا تضحك، بل افهم». وبالطبع فإن فهم أفعال شخص ما لا يعني بالضرورة تبريرها. ومع ذلك فإنه فمن خلال دراسة أفعال الرجال والنساء دراسة علمية، بنفس الموضوعية التي يكشف بها عالم التشريح أنسجة الكائن الحي، يصير من الممكن على الأقل تجنب الوقوع في أحكام متسرعة مبنية على الضغينة أو الكراهية أو الحقد.

يعيد بادورا، بموضوعية تامة، بناء حياة ميركادر منذ طفولته المضطربة في أسرة برجوازية في كاتالونيا. يصف تأثير والدته المضطربة نفسيا، كاريداد، التي تذبذبت بين اللاسلطوية والستالينية، وصارت متعصبة للحزب الشيوعي. انضم رامون إلى الحزب الشيوعي وشارك في الحرب الأهلية الإسبانية، حيث جندته الشرطة السرية السوفياتية (GPU)، بتشجيع من والدته.

في إحدى اللحظات، تلمح كاريداد بقوة إلى أن الثوري اللاسلطوي الشهير دوروتي قد اغتيل على يد الستالينيين، وهو فعل تعتبره مبررا جدا:

«‹هل صدقت قصة مقتل بوينافينتورا دوروتي برصاصة طائشة؟›

‹نظر رامون إلى والدته وشعر بالعجز عن النطق ولو بكلمة.

‹هل تعتقد أننا نستطيع الانتصار في حرب بقائد لاسلطوي أكثر هيبة من جميع القادة الشيوعيين؟›

قال رامون محاولا إقناعها: ‹لقد كان دوروتي يقاتل من أجل الجمهورية›.

«عاشت سلالة أبطال ستاخانوف التي أنجبها جوزيف ستالين!»، 1935.

‹لقد كان دوروتي لاسلطويا؛ وكان ليظل كذلك طوال حياته»»[4].

داخل آلة القتل

لاحقا يشهد رامون جرائم جهاز المخابرات السوفياتية (GPU) في إسبانيا: اضطهاد اللاسلطويين وأنصار حزب العمال الماركسي الموحد (POUM)، بما في ذلك اختطاف وتعذيب وقتل زعيم الحزب أندرو نين. وفي النهاية، يتم إرساله إلى موسكو للتدرب كقاتل لدى جهاز المخابرات السوفياتية. تصف الرواية الأساليب الوحشية لجهاز المخابرات السوفياتية بتفاصيل مروعة، وكيف تم التعامل بوحشية مع أشخاص مثل ميركادر وتحويلهم إلى آلات مطيعة، جاهزة لارتكاب أبشع الأعمال وأكثرها لا إنسانية.

ضباط شرطة يعرضون الفأس الجليدية التي استخدمها رامون ميركادر.

وأثناء وجوده في موسكو، استدعي لحضور جلسة من محاكمات التطهير سيئة السمعة، «المهزلة القضائية الأكثر بشاعة في القرن»، والتي قتل فيها ستالين جميع قادة حزب لينين، بعد إجبارهم على الاعتراف بارتكاب أبشع الجرائم ضد الثورة. كما لاحظ أن ستالين كان يُصفي جسديا الشيوعيين الأجانب:

فعلى سبيل المثال، في فبراير 1937، أخبر ستالين دميته جورجي ديميتروف، الأمين العام للأممية الشيوعية، أن الشيوعيين الأجانب الذين استقبلهم في موسكو «يتآمرون مع العدو»، وكلف يزوف على الفور بحل المشكلة. بعد عام، لم يبق على قيد الحياة سوى 170، من بين 394 عضوا في اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية الذين كانوا يعيشون في الاتحاد السوفياتي، بينما أعدم الباقون أو أرسلوا إلى معسكرات العمل القسري.

إلقاء القبض على ميركادر بعد عملية الاغتيال.

كان من بينهم ألمان ونمساويون ويوغوسلافيون وإيطاليون وبلغاريون وفنلنديون وبالطيقيون وبريطانيون وفرنسيون وبولنديون، في حين كانت نسبة اليهود المحكوم عليهم مرتفعة مرة أخرى. في تلك الحملة الشعواء، تجاوز عدد قادة الحزب الشيوعي الألماني قبل عام 1933 الذين قتلهم ستالين عدد الذين قتلهم هتلر نفسه»[5].

لكن وعلى الرغم من كل ذلك فقد بقي رامون مواليا بشكل أعمى لستالين ونظامه، وبرر ذلك بضرورة الدفاع عن الاتحاد السوفياتي. وقام، مثله مثل الكثيرين غيره، بغض الطرف عن كل الجرائم والفظائع، متذرعا بألف سبب وعذر وتفسير. وبعد أن قضى على كل غرائزه البشرية، أصبح قاتلا مأجورا، وقبل دون تردد المهمة التي أوكلها إليه رئيسه في الكرملين، والتي هي تصفية «المعادي للثورة» تروتسكي.

الاغتيال

يقدم الكتاب سردا تاريخيا صادقا لعملية اغتيال ليون تروتسكي. ففي سنة 1937، قرر ستالين أنه من الضروري تصفية خصمه الرئيسي. وكان الهدف من محاكمات موسكو وضع أساس سياسي وقانوني لتلك الجريمة. كان منزل تروتسكي في كويواكان محاطا بجدران يبلغ ارتفاعها ستة أمتار وأبراج مراقبة مزودة بفتحات للرشاشات. لكن كل ذلك لم يكن دفاعا كافيا ضد آلة القتل الستالينية.

ما يزال إستيبان فولكوف، حفيد ليون تروتسكي وصديقي القديم، يعيش في كويواكان[6]. التقيت به منذ فترة وجيزة في المنزل الذي قُتل فيه جده في مكسيكو سيتي، وسألته عن رأيه في رواية بادورا. فأجاب: «بالطبع أعرف الأحداث الموصوفة في كتابه بشكل جيد جدا. لقد قرأت الكتاب سريعا، وكان انطباعي عنه إيجابيا. لكنني أحتاج إلى قراءته مرة أخرى بتعمق أكبر».

وقع الهجوم الأول في 24 ماي 1940، عندما اقتحمت مجموعة من 20 مسلحا ستالينيا، بقيادة الفنان ديفيد سيكيروس، المنزل ليلا؛ كان الشاب الأمريكي بوب شيلدون، وهو عميل تسلل بين

نحن كائنات هشة، ويمكن أن تنتهي حياتنا برصاصة أو سكين أو فأس جليدية بالسهولة نفسها التي تُطفأ بها شمعة. لكن لا يمكن إخماد فكرةٍ قد حان أوانها.

الحراس، قد ترك الباب مفتوحا. فألقوا قنابل يدوية وأمطروا غرف النوم بوابل من رصاص الرشاشات. وبمعجزة، نجا تروتسكي وزوجته ناتاليا بالاحتماء تحت سريرهما. أما حفيدهما إستيبان، البالغ من العمر 14 عاما، فقد أصيب بجرح طفيف في قدمه برصاصة طائشة.

كان بوب شيلدون هو الضحية الوحيدة لذلك الهجوم، حيث اختفى مع المهاجمين. ثم عُثر على جثته لاحقا. اعتقد تروتسكي أنه اختُطف، لكنه في الحقيقة كان مشاركا في العملية، وربما قُتل ككبش فداء للفشل. بعد الهجوم، بدأ الحراس بتعزيز الأسوار المحيطة. لكن تروتسكي كان متشككا في فعالية ذلك، وتوقع قائلا: «في المرة القادمة سيكون الأمر مختلفا». وسرعان ما ثبتت صحة توقعاته.

كان لدى جهاز المخابرات السوفيتية (GPU) فريق آخر يعمل في المكسيك، منفصل تماما عن الفريق الذي نفذ الهجوم الفاشل في ماي. ومثلما حذر تروتسكي بالضبط، فقد كانوا يعملون بأساليب مختلفة تماما. كان رجلهم الرئيسي هو رامون ميركادر، الذي تسلل بمهارة فائقة إلى دائرة تروتسكي في المكسيك، متظاهرا بأنه رجل أعمال غير مهتم بالسياسة يُدعى جاكسون.

عمل جاكسون-ميركادر ببطء وصبر على بناء علاقات ودية مع الحراس وأقرب أصدقاء تروتسكي. يتذكر إستيبان أنه كان دائما يُسدي خدمات صغيرة، ويتطوع لتوصيل الناس بسيارته الفاخرة. «حتى أنه ذات مرة أوصل عائلة روسمر إلى فيراكروز». وبهذه الطريقة استطاع تدريجيا التسلل بخبث وكسب ثقة المحيطين بتروتسكي، متجنبا في الوقت نفسه محاولة الاقتراب من ضحيته بشكل شخصي.

يقدم لنا الكتاب إعادة بناء مقنعة للغاية لعلاقة ميركادر بسيلفيا أغيلوف، المرأة التي أغواها والتي عرّفته على منزل تروتسكي. يبدو أن بادورا قد تمكن من اختراق عقل القاتل وكشف عن حالته النفسية خلال الأيام والأسابيع التي سبقت الجريمة، واضطرابه الداخلي الشديد وتقلبات مزاجه الحادة. لكن تدريجيا، وبشكل غير محسوس، وكما لو أنه نمر يتربص بفريسته في صمت، اقترب أكثر فأكثر من هدفه.

ومن خلال التظاهر بأنه بدأ يهتم بأفكار تروتسكي، كتب فجأة مقالا عن الحرب، وطلب من تروتسكي قراءته وتصحيحه. في ذلك الوقت، كانت الشكوك قد بدأت تساور تروتسكي تجاه ذلك الرجل. لكن المثير للدهشة هو أن من كان من المفترض أن يحموه أبدوا جهلا تاما بالخطر المحدق. لقد كانوا مهملين للغاية في أداء واجبهم، لدرجة أنهم عندما ظهر جاكسون مرتديا معطفا ثقيلا في يوم صيفي مكسيكي حار، لم يكلفوا أنفسهم عناء تفتيشه. لو أنهم اتخذوا هذا الاحتياط البسيط، لكانوا قد عثروا عنده على سكين ومسدس وفأس جليد، ولتم إحباط المؤامرة.

وهكذا، في 20 غشت، تُرك عميل ستالين لوحده بصحبة ضحيته. وقف بحذر خلف تروتسكي بينما كان هذا الأخير منحنيا يقرأ المقال، ثم ضربه بكل قوته على رأسه. كان من المفترض أن تؤدي تلك الضربة إلى قتله على الفور، لكنه أطلق صرخة مدوية أيقظت الحراس، وقاتل، في آخر محاولة يائسة، لصد مهاجمه قبل أن ينهار.

هرع حراسه الشخصيون إلى الداخل، لكن بعد فوات الأوان. كان قائد ثورة أكتوبر ومؤسس الجيش الأحمر يرقد مصابا بجروح قاتلة، والدماء تتدفق من رأسه. أدرك الحراس بعد فوات الأوان خطأهم، وإهمالهم الغبي، وتقصيرهم الفادح. حاولوا تخفيف آلامهم بضرب القاتل، لكن حتى في تلك اللحظة، أظهر تروتسكي رباطة جأش مبهرة حين نادى على الحراس قائلا: «لا تقتلوه. يجب أن يتكلم!».

في ذلك اليوم، وبينما كان إستيبان عائدا من المدرسة، رأى مشهدا مروعا. قال لي: «رأيت رجلا وجهه مغطى بالدماء، يبكي كطفل رضيع، كلامه غير مفهوم، وكأنه فقد صوابه. لم أتعرف على جاكسون في البداية. كان أشبه بالحيوان منه بالإنسان». وعندما لمح الشيخ حفيده، أمر الحراس بإخراجه قائلا: «يجب ألا يرى هذا». تم نقل تروتسكي على الفور إلى المستشفى، حيث بذل الأطباء المكسيكيون قصارى جهدهم لإنقاذ حياته. لكنه توفي في اليوم الموالي.

انتقام التاريخ

بعد أكثر من عشرين عاما، التقى ميركادر بأحد زملائه في جهاز المخابرات السوفياتية، ليونيد إيتينغون، الذي كان يُعرف بالاسم الرمزي كوتوف، والذي كان رئيسه المباشر في مؤامرة اغتيال تروتسكي. لكن عجلة التاريخ كانت قد دارت دورة كاملة آنذاك. فقد كانت الزمرة الحاكمة في الكرملين قد قررت، حفاظا على مصالحها، التخلي عن ستالين والتبرؤ من جرائمه.

صار هؤلاء الذين نفذوا الأعمال القذرة لستالين منبوذين ومحتقرين. قضى بافيل سودوبلاتوف، العقل المدبر لاغتيال تروتسكي، خمسة عشر عاما في أحد معسكرات العمل (وإن لم يكن ذلك لقتله تروتسكي). إيتينغون بدوره أرسل إلى معسكر عمل. وبعد أن صار عجوزا حاقدا، كان يُعزي نفسه بشرب الفودكا وهو يُواسي ميركادر في حانة بموسكو.

كان ذلك سنة 1968، وهي السنة التي أرسل فيها بريجنيف دبابات روسية لسحق الحزب الشيوعي

مكتب ليون تروتسكي في المكسيك، والذي جرى الحفاظ عليه ضمن متحف منزل ليون تروتسكي.

آلاف الأشخاص يشاركون في موكب جنازة تروتسكي في مكسيكو سيتي، 22 أغسطس 1940.

التشيكي المنشق بقيادة دوبتشيك. وصف بادورا الدقيق لموسكو في ذلك الوقت يتطابق إلى حد كبير مع ذكرياتي عنها. وبعد أن كرسوا حياتهم لخدمة نظام خان كل مبادئ الاشتراكية -خيانة أسوأ وأكثر ضررا بكثير من تلك التي ارتكبها قادة الاشتراكية الديمقراطية في صيف 1914- لم يتبق لهم سوى اجترار ذكريات مريرة.

يخبر إيتينغون ميركادر أنهم لم يتوقعوا أبدا أن ينجو من عملية اغتيال تروتسكي:

«عليك أن تصدق ما أقوله لك: لقد كنا أكثر تشاؤما مما تتخيل. لم تكن الوحيد الذي كان سيموت من أجل مُثُلٍ لم تكن موجودة. لقد شوه ستالين كل شيء وأجبر الناس على القتال والموت من أجله، من أجل احتياجاته وكراهيته وجنون عظمته. انسَ أننا كنا نقاتل من أجل الاشتراكية. أي اشتراكية، أي مساواة؟ قيل لي إن بريجنيف يمتلك مجموعة من السيارات الكلاسيكية الفاخرة»[7].

تشير هذه السطور إلى أن انحطاط الثورة الروسية كان من فعل رجل شرير واحد. لكن هذا التفسير لا يفسر شيئا، بالطبع. لقد قرأ بادورا كتاب تروتسكي «الثورة المغدورة» وهو يُدرك تماما أن ستالين لم يكن سوى ممثل لفئة متميزة من المسؤولين، البيروقراطية التي وصلت إلى السلطة نتيجة لعزلة الثورة في ظل ظروف تخلف شديد.

موت ستالين لم يُمثل نهاية حكم البيروقراطية، بل مجرد انتقال من شريحة إلى أخرى داخلها. يستنتج إيتينغون (أو بالأحرى بادورا) ما يلي:

«كنتُ مقتنعا بأنه بدون ستالين وكراهيته، سيكون الحزب عادلا وسيستعيد الكفاح معناه... لكن دعك من هذا. لقد كنتُ مخطئا مرة أخرى. كان كل شيء فاسدا. منذ متى وهو فاسد؟»[8].

فيسأله ميركادر: «إذن، ما الذي يفعل رجل مثلك عندما يفقد إيمانه بأي شيء؟»[9].

هذا السؤال يلامس جوهر الموضوع، وله تأثير مباشر على ما يُعتبر بلا شك أضعف جزء في الكتاب. وفي الصفحات الأخيرة المعنونة «مرثية»، يتأمل المؤلف بإيجاز في الدروس المستفادة من كل ذلك. لكن وبما أنها رواية وليست عملا تحليليا سياسيا علميا، فمن المبالغة المطالبة هنا بمنظور ماركسي. كما أنه ليس من الواضح من المتحدث هنا: هل بادورا نفسه أم إحدى شخصياته.

ومع ذلك فإن ما يُفهم ضمنا في النهاية هو أن كل شيء كان طوباويا، ومجرد حلم مستحيل، سعى تروتسكي «بتعصبه العنيد»[10] لتحقيقه حتى النهاية. إن مثل هذه الخاتمة المبهمة، والتي يمكن وصفها بالجبانة، لا تليق بكتاب عظيم. إذا كانت الاشتراكية مجرد حلم طوباوي، فإن مستقبل البشرية سيكون قاتما حقا! ولا يسع المرء إلا أن يرد بالسؤال نفسه: «إذن، ما الذي يفعله الإنسان عندما يفقد إيمانه بكل شيء؟».

لم تكن الثورة الروسية عام 1917 حلما طوباويا، بل كانت أعظم حدث في تاريخ البشرية، وكان تروتسكي، إلى جانب لينين، أهم قادة ثورة أكتوبر. وبعد وفاة لينين، كان هو وحده من حافظ على راية الديمقراطية البروليتارية والأممية

احتجاج «ماليكوناثو» في هافانا، 5 أغسطس 1994 (LHCU).

الاشتراكية طاهرة. ومن منفاه البعيد في المكسيك، خاض نضالا لا هوادة فيه ضد النظام الستاليني البيروقراطي الشمولي. وفي النهاية، وكما كان متوقعا، سقط ضحية على يد أحد مجرمي ستالين.

في 20 غشت 1940، ظن ستالين أنه أسكت صوت تروتسكي إلى الأبد. من السهل جدا تدمير جسد إنسان، فنحن كائنات ضعيفة، ويمكن أن تنتهي حياتنا برصاصة أو سكين أو فأس جليد كما تطفأ شمعة. لكنه لا يمكن إخماد فكرة آن أوانها. واليوم ما تزال أفكار الماركسية راهنية وحاضرة بقوة، ويتردد صدى صوت ليون تروتسكي في أرجاء العالم، بينما تلطخت ذكرى ستالين وأتباعه بالدماء والعار.

الثورة المغدورة

يتشكل، ببطء، جيل جديد يناضل من أجل الوصول إلى الحقيقة. وليس هناك من مكان تتجلى فيه هذه الحقيقة أكثر من كوبا، حيث بُذلت تضحيات جسيمة في سبيل الثورة الاشتراكية، وحيث تسببت الستالينية في إحداث أضرار بالغة. وكتاب بادورا سوف يساعد، بلا شك، الكثيرين على فهم الماضي، وبالتالي إعدادهم لمواجهة المستقبل. إنه أشبه برحلة استكشافية، حيث تمكن عقل جريء من كشف النقاب عن الحقيقة التي طالما حجبت عن أنظار الكثيرين، ومكنهم من إدراكها.

في مقابلة مع صحيفة *Clarín* ، سُئل بادورا عن سبب اختياره سرد هذه القصة. فأجاب بأنه رغم وجود نزعة حنين إلى الماضي، فإنه كان يسعى أيضا لاكتشاف الأسباب الحقيقية لانحطاط الثورة الروسية. ومن خلال دراسته لعملية اغتيال تروتسكي، بدأ يفهم طبيعة الستالينية ودورها المضاد للثورة:

«فجأة فهمت بعض الأسباب التي أدت إلى انحراف اليوتوبيا. كان دور الستالينية، وإرث شخصيته، أمرا فظيعا»[11].

> **إيفان ليس شخصًا بعينه؛ إيفان هو خلاصة جيلٍ بأكمله، أودعتُ فيه كثيرًا من أوهام جيلي وخيباته وهزائمه ومخاوفه.**
>
> — ليوناردو بادورا

تتناول الرواية بإيجاز الصراع الذي انتهى بصعود ستالين إلى السلطة في روسيا. لكن وبالإضافة إلى ذلك يستخدم المؤلف تلك الأحداث كوسيلة لتحليل العلاقة بين كوبا والستالينية. يُفهم من ذلك بوضوح أن كوبا كانت تزخر بالعديد من الستالينيين الصغار، بيروقراطيين انتهازيين، ووصوليين أنانيين، ومسؤولين فاسدين.

كانت سبعينيات القرن العشرين في كوبا فترة حالكة سيطرت خلالها الستالينية، واستغلت البيروقراطية الستالينية القناعات الثورية المتأججة لجيل من الشباب الكوبي لتحقيق مآربها الخاصة. يتجلى هذا بوضوح في الكتاب نفسه وفي مصير شخصيته الرئيسية. سقوط الاتحاد السوفياتي أغرق كوبا في أزمة عميقة، ليس فقط على الصعيد الاقتصادي، بل على الصعيدين السياسي والسيكولوجي أيضا.

خلال سنوات الجوع والمصاعب التي يسميها الكوبيون «الفترة الخاصة»، «سنوات الانقطاع المتكرر للتيار الكهربائي، ووجبات الإفطار المكونة من شاي أوراق البرتقال»[12]، بدأ الكثيرون ينظرون إلى الحياة في الجزيرة بنظرة نقدية أعمق. كان هذا بوضوح هو حال ليوناردو بادورا. فرغم أن إيفان شخصية خيالية، فإن بادورا يُعبر من خلاله بوضوح عن تجربته الشخصية وتجارب العديد من الكوبيين الآخرين. ويتجلى هذا بوضوح في الكتاب، حيث يقول:

«كان جليا أننا انحدرنا إلى قاع سلم اجتماعي

كاتب الرواية : ليوناردو بادورا (خورخي ميخيا بيرالتا).

متدهور، حيث تراجعت قيم الذكاء والنزاهة والمعرفة والقدرة على العمل أمام الدهاء والقرب من الدولار والمكانة السياسية وكون المرء ابنا أو ابن أخ أو ابن عم لشخص مهم ما، وفن المناورة والاختلاق والزيادة والهروب والتظاهر وسرقة كل ما يمكن سرقته. والكلبية، يا لها من كلبية حقيرة!»[13].

أجبر إيفان على التخلي عن مسيرته ككاتب واعد بسبب الرقابة الستالينية، فاضطر لكسب عيشه مصححا لغويا في مجلة بيطرية. وهكذا فإنه ضحية نظام بيروقراطي شمولي ينفي الفن والأدب. وفي النهاية يموت إيفان منهكا ومحبطا، بعد فترة وجيزة من انتهائه من كتابة رواية بعنوان «الرجل الذي أحب الكلاب».

وفي مقابلة أجراها بادورا مع رفاقنا الدنماركيين، قال:

«إيفان ليس مجرد رجل؛ إيفان هو خلاصة جيل، وضعت فيه الكثير من أوهام جيلي وخيباته وهزائمه ومخاوفه. إنه رجل يمثل كل المشاكل التي عاشها جيلي في كوبا، ذلك الجيل الذي نشأ في خضم الثورة، ودرس خلالها، وخاض الحرب تحت رايتها، والذي وجد نفسه في سنوات التسعينيات محروما من كل شيء».

إن وفاة إيفان في مثل تلك الظروف المأساوية توحي بأن جيلا بأكمله قد فقد كل أمل. إلا أن هذا الاستنتاج المتشائم يتناقض مع مضمون الرواية برمتها، ومع كلمات بادورا نفسه في المقابلة المذكورة آنفا، حيث قال:

«أعتقد أن اليوتوبيا الجديدة بحاجة إلى إعادة اكتشاف أسس النظام بالمكونات الحقيقية التي يحتاجها هذا النوع من المجتمعات: ديمقراطية حقيقية، وسلطة حقيقية للشعب العامل، لا للبيروقراطية كما كان الحال في الاتحاد السوفياتي والعديد من البلدان الاشتراكية الأخرى. ولهذا

ليون تروتسكي في مكتبه يتفحّص البروفات النهائية لكتابه عن جوزيف ستالين، الذي كان يعمل عليه قبل اغتياله (ديفيد كينغ).

السبب، أعتقد أن هذا الكتاب وثيق الصلة باللحظة التي نعيشها»[14].

على الرغم من زوال أسوأ مظاهر القمع الستاليني الذي ساد في سبعينيات القرن الماضي، وتحرر كوبا من سطوة الرقابة الخانقة، فإنه ما يزال في كوبا من يتوق إلى العودة إلى الماضي: إلى زمن كان فيه في مقدور البيروقراطيين أن يملوا على الكُتّاب ما يجب عليهم أن يفكرون فيه، وما الذي يقولونه، وما الذي يمكنهم أن يكتبوه. في الواقع، كان من المقرر في البداية نشر رواية «الرجل الذي أحب الكلاب» في المكسيك وإسبانيا، ثم نُشرت أخيرا في كوبا في طبعة محدودة من بضعة آلاف بسبب معارضة من يرغبون في إعادة عقارب الساعة إلى الوراء.

قبر تروتسكي في منزله بمدينة مكسيكو سيتي (لازجاك).

في مقابلته مع الرفاق الدنماركيين، يشرح بادورا كيف فاز كتابه بجائزة رغم تعرضه لمؤامرة الصمت، وقال:

«من الغريب أنه في يوم إطلاق الكتاب في معرض الكتاب، لم تظهر أي أخبار في وسائل الإعلام عن العرض. وحتى بعد ذلك، التزمت الصحف الصمت، رغم أن إطلاق الكتاب كان الحدث الأبرز في المعرض، وكانت القاعة مكتظة تماما، حتى أن الناس كانوا يحاولون الدخول دون جدوى. قبل أسبوع، فاز الكتاب بجائزة النقاد الوطنية في كوبا، وهذا يبرز تناقضات كوبا: قبل عشرين عاما، ربما لم أكن حتى لأفكر في كتابة هذا الكتاب؛ قبل عشر سنوات، كان بإمكاني كتابته، لكنه لم يكن ليُنشر في كوبا؛ أما الآن، فقد أصبح بالإمكان نشره، ورغم التكتم الإعلامي عليه، فإنه قادر على الفوز بجوائز»[15].

يُمثل نشر رواية بادورا ضربة قوية للستالينية. إنه ليس فقط انتصارا لحرية الفن، بل وكذلك لحق العمال والفنانين في التعبير عن أنفسهم بحرية، والذي هو الشرط الأول للاشتراكية الحقيقية. لكن الثورة الكوبية اليوم تواجه عدوا أشد خطورة بكثير من الخطر الذي يمثله الستالينيون المتشبعون بالحنين إلى الماضي. إن وجود الثورة نفسها مهدد من قبل أولئك الذين يرغبون في دفع كوبا نحو نفس المسار الرأسمالي الذي سلكته روسيا والصين. إن الضغوط على الجزيرة شديدة ومتزايدة باستمرار.

لكن ثمة أيضا مخاطر داخلية تفوق خطر التهديدات الخارجية. فالمشاكل الناجمة عن البيروقراطية واللامساواة والفساد قد تقوض فكرة الاشتراكية في أذهان الشباب، وتولد مشاعر ناقمة من الشك والتشاؤم. ولإحياء الثورة، وإعادة الحياة لإيمان الشعب بالاشتراكية، أول ما يجب فعله هو إعادة دراسة التاريخ، واستكشاف الأفكار والبرنامج الحقيقيين للينين وثورة أكتوبر. ولن يتسنى ذلك ما دام دور تروتسكي مطموسا وأفكاره محاصرة.

يصور بادورا في كتابه ميركادر وهو يقرأ «الثورة المغدورة» في السجن. وهذا، بلا شك، مثال آخر على خيال المؤلف الخصب. لكن لا شك أيضا في أن بادورا نفسه قد قرأ كتابات تروتسكي ويشجع الكوبيين على فعل الشيء نفسه. لقد لعبت رواية «الرجل الذي أحب الكلاب» دورا بالغ الأهمية في تعريف الكثيرين في كوبا على أفكار تروتسكي. وقد أثبتت لي تجربتي في السنوات الأخيرة وجود اهتمام متزايد بهذه الأفكار في الجزيرة. وقد تجلى ذلك الاهتمام بوضوح عند إطلاقنا للنسخة الإسبانية من كتاب «الثورة المغدورة» في معرض هافانا للكتاب.

لقد ساهم نشر هذا العمل في رفع مكانة بادورا وسمعته باعتباره كاتبا مرموقا، ليس فقط في كوبا بل على الصعيد العالمي. وهو يستحق ذلك بجدارة. فالرواية توليفة بارعة بين الحبكة المتقنة وبين البحث التاريخي المثير للإعجاب. وينبغي أن تكون قراءتها إلزامية لكل من يهتم بالاشتراكية والحقيقة التاريخية. وأود أن أضيف هنا أن الترجمة الإنجليزية ممتازة.

References online at **marxist.com/idom-51-references** or scan the QR code

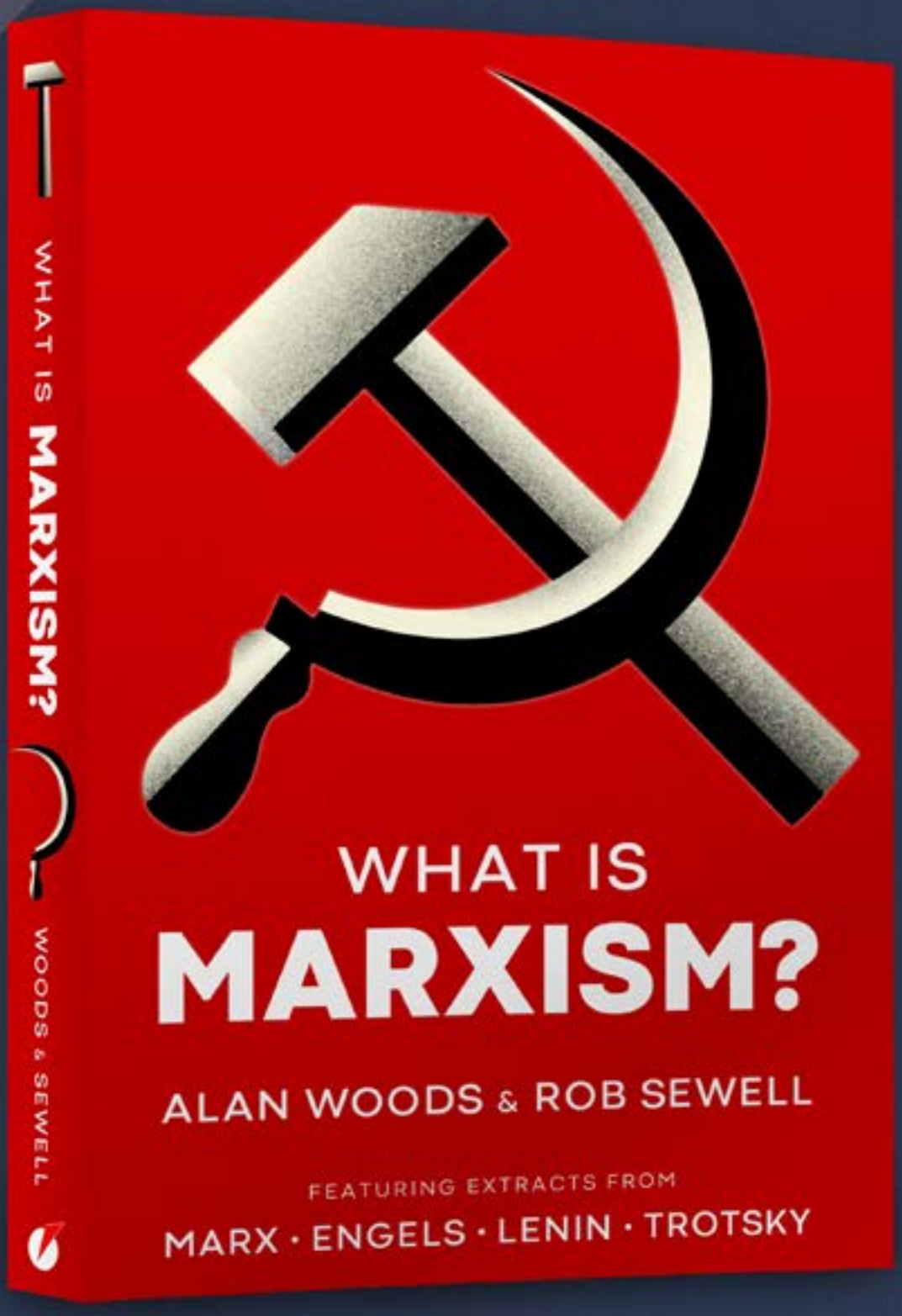

New from
Wellred Books!

wellred-books.com